

عبدالوهاب مطاوع

أرجوك .. أعطني حورك



الدار المصرية اللبنانية

عبد الوهاب

أرجوك
أعطيني محمداً



الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة .

تليفون: 23910250 + 202

فاكس: 23909618 + 202 - ص.ب 2022

E-mail: info@almasriah.com

www.almasriah.com

رقم الإيداع : 1843 / 2000

الترقيم الدولي : 9 - 586 - 270 - 977

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الثالثة : ذو الحجة 1425 هـ - يناير 2005 م

الطبعة الرابعة : رجب 1429 هـ - أغسطس 2008 م

أرجوك أعطني محرك

عبد الوهاب مطاوع

الناشر
دار الصحف رتبة البناية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * أَقْرَأْ وَرَبُّكَ
الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

مقدمة

فى هذا الكتاب فصل بعنوان « أرجوك . . أعطنى عمرك » ، قلت فيه إن الإنسان يحتاج لأن يعيش حياته أكثر من مرة لكى يجيد فن الحياة ويحسن التعامل مع ما يواجهه فيها من اختبارات وتناقضات وألغاز محيرة . . ولأن الأمنية مستحيلة ، فإنه يحاول أن " يطيل " عمره المحدود بإضافة أعمار الآخرين إليه . . أى بإضافة ما تعلمه الآخرون من دروس حياتهم وتجاربهم إلى ما تعلمه هو من أخطائه وعثراته ، فكأنها يضيف بذلك عصارة أعمارهم إلى عمره ، وكأنه حين يطلب النصيحة من غيره ، فكأنها يرجوه أن " يمنحه عمره " ليستفيد بدروسه وحكمته فيما يواجهه من مواقف وامتحانات .

وفى هذا الكتاب أروى لك بعض تجاربى وخواطرى وذكرياتى خلال رحلة العمر ، لعلك تجد فيها بعض ما تستفيد به أو يستحق التأمل والتفكير ، كما استفدت أنا من قبل بتجارب كل من قرأت لهم خلال

رحلة السنين ، وكل من اقتربت منهم على المستوى الشخصى واستمعت
باهتمام شديد إلى ذكرياتهم وتجاربهم الشخصية وآرائهم فى الحياة .

فالإنسان يتفاعل إرادياً ولا إرادياً مع كل من يتعامل معهم فى علاقاته
الشخصية ، وما يلاحظه فى الحياة ويرقبه عن قرب فى حياة الآخرين ، أو
يقرأه مسطوراً على الورق فى الأدب والتاريخ وكتب التراجم الشخصية .

فإذا رجوتك ذات يوم صادقاً أن تعطينى عمرك فلا تظن بى الظنون ،
وإنما ثق أننى أطلب منك بهذا الرجاء خبرتك وثمار تجاربك الشخصية
ودروس حياتك . . . وكل ذلك قد تجد بعضه فى هذا الكتاب . . . وقد ترى
- كرمًا منك وفضلاً - أن نتبادل الاستفادة ، فتنقل لى ذات يوم خبرة
حياتك وتضيف عمرك السعيد إلى عمرى المكدود . . . وشكرًا .

عبد الوهاب مطاوع

وَدَّعْ هَوَاك

كنتُ في زيارة لمدينتِ الصغيرة بالوجه
البحري ..

حين وقعت عليه عيناي خُيِّلَ إلى أننى
أعرفه، لكنى لا أتذكر اسمه .. أما هو فلقد
خيل إلى أيضا أنه قد عرفنى ، وإن كان لا
يتذكر اسمى .. وحين حييته رد على التحية
بأدب، ولكن بلا حرارة، وقالت لى ابتسامته
الخفية بلا كلمات : شكرا ، لأنك قد عرفتنى
بعد كل هذه السنين .. لكن أرجو أن تكتفى
بالتحية العابرة وتنصرف إلى حال سبيلك،
فلقد أصبحنا من عالمين مختلفين .. ولا أمل
في استعادة الماضى البعيد الذى لا يرجع أبدا !

لماذا تخيلتُ هذا الحوار الصامت معه ؟ هل لأن حال ذلك الرفيق القديم من رفاق الصبا لا يمكن أن يوحى بغيره ؟

ربما . . فقد كان « درويشًا » من الدراويش الذين يقضون يومهم كله إلى جوار مسجد سيدى إبراهيم الدسوقي مستغرقين فى تأملاتهم وسبحاتهم ، ويستعينون على الحياة بتجارة هامشية بسيطة قد تباع . . وقد لا تباع . وبالرغم من ذلك فإن فى الوجه صفاء غريبًا . . وفى القلب فراغًا من الدنيا ومطامعها وهمومها يحسده عليه كل ذى قلب حكيم ، فكيف تفرقت بنا حظوظ الحياة على هذا النحو فأصبح هو هذا الرجل الجالس فى سكون على رصيف هذا المسجد . . وأصبحتُ أنا ذلك الرجل اللاهث دومًا فى سباق الحياة ! ولماذا غبطته على صفاء روحه وسلامه النفسى . . وفراغه من هموم الدنيا ؟ !

إنه ليس الوحيد بين مَنْ جمعتنى بهم الحياة بالصدفة بعد ٤٠ عامًا أو تزيد من طفولتنا المشتركة ، فتأملتُ كيف اختلفت بيننا حظوظ الحياة ، وشعرتُ نحوهم بالحنين القديم ، وتمنيتُ لو استطاعوا أن يتجاوزوا حاجز السنين الوهمى ويرجعوا إلى مودتهم السابقة معى . . حين كنا صغارًا نلعب فى الشوارع ولا ندرى ماذا تخفى لنا الحياة فى قادم الأيام ؟

فمنذ سنوات كنتُ مسافرًا بالقطار من القاهرة للإسكندرية ، فإذا ببائع للمجلات القديمة يدخل العربى منشداً بصوت جميل بعض الكلمات المنظومة ليروج بها لسلعته البسيطة . . فما أن وقعت عليه عيناى

حتى تذكرته ، وسرت البهجة في روحى . . إنه زعيم أطفال الشارع في الزمن القديم ، لم تكد السنون تغير الكثير من ملامح وجهه الأسمر . . أولمة الذكاء البادية في عينيه . . وها هو يستخدم صوته الجميل وبراعته القديمة - التى طالما بهرنا بها ونحن صغار - فى كسب الرزق والتحايل على الحياة ، فكيف لم تؤهله مؤهلات الزعامة القديمة لأكثر من هذا الحظ القليل من حظوظ الحياة ؟ لقد راقبته مبتهجاً فى انتظار أن يصل إلى مقعدى ، فأستوقفه وأستعرض ما معه من مجلات وأشتري بعضها ، ولو لم أكن فى حاجة إليه . . وأسأله خلال ذلك عن أحواله وحكايته مع الأيام ، وأتبادل معه بعض الذكريات . . فما أن اقترب منى ولمحنى حتى لمع بريق التذكر فى عينيه الذكيتين ووشت ملامحه بابتسامة حيية ، وقبل أن أنطق بكلمة كان قد تجاوزنى فى خفة إلى من بعدى بغير أن يتوقف أمام صف المقاعد الذى أجلس فيه . . أو الصف الذى يليه ، ثم واصل عرض بضاعته البسيطة وسمعته يغنى من بعيد : ودّع هواك وانسأه وانسانى ، عمر الى فات ما حيرجع تانى . . يا مجلات بربع جنيه المجلة !

فهل كان يقصدنى بهذه الكلمات الموحية ، ويريد أن يقول لى إنه لا أمل فى تجاوز الفوارق الاجتماعية التى قامت بيننا ، فأصبحت أنا من ركاب القطار وهو من باعة الأشياء البسيطة فيه ؟ أم هل أراد أن يعفى نفسه من حرج رؤيتى له وهو يمارس عمله الهامشى هذا ، بعد أن كان الزعيم المبرز بيننا ونحن أطفال صغار لا فوارق بيننا ولا تفاضل إلا بالمهارة فى اللعب !

ولماذا حرمنى من بهجة استرجاع هذه الذكريات السعيدة معه لبعض الوقت . . ومن يُدريه أننى مازلتُ لا أخلو من إعجاب قديم بمهارته وذكائه وخفة ظله ، التى مازالت تنعكس على طريقة ترويجه لسلعته البسيطة ؟

ومن قال له إننى أقوم علاقتى بالرفاق القدامى بحظوظهم من الحياة ، ومقدار ما حققوه من نجاح فى حياتهم العملية ؟

إن من بين رفاق طفولتى وصباى مَنْ أصبحوا الآن رجال أعمال قادرين ، أو شغلوا أكبر المناصب فى الجيش والشرطة والحكومة والجامعات ، ومن بينهم كذلك مَنْ لم يتجاوز نصيبهم من الحياة مثل هذه الأعمال البسيطة والهامشية ، كهذا الدرويش السعيد . . وهذا البائع الجوّال فى القطارات . . وذلك الملاحظ لموقف سيارات الأجرة فى المدينة الصغيرة . . وذلك الموظف الصغير الذى لم يحقق طموحه العمل فى الوظائف الحكومية ، فعَوَّضَهُ الحياة عن ذلك بثلاثة أبناء ناجحين من الأطباء والمهندسين .

فمن قال لأصحاب الحظوظ القليلة فى الحياة إنهم فقدوا جدارتهم بصداقة الرفاق القدامى لمجرد أن الحياة قد منحتهم بعض ما حجبته عنهم ، ولماذا يستسلمون لهذا الحاجز الوهمى الذى يشعرون - خطأ - بانعدام جدارتهم بمثل هذه الصداقة ؟ !

وما هى مقاييس الفشل والنجاح فى الحياة العملية ؟

هل ينحصر النجاح فقط في النجاح المادى والعملى فى الدنيا ؟

وأليست السعادة والتوفيق فى الحياة الخاصة والانطلاق ، والسلام النفسى والابتهاج بالحياة غايات غالية كذلك ، تهفو إليها نفوس المحرومين منها ؟

فى عام ١٩٦٥ كان جمال عبد الناصر ملء الأسع والأبصار فى أركان الدنيا الأربعة ، ولم تكن هزيمة يونيو ١٩٦٧ قد وقعت بعد فقصمت ظهره ونالت من هيئته ومكانته ، حتى قال بعض زملائه القدامى إنه قد مات فى يونيو ١٩٦٧ ، ودفن فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ تاريخ وفاته الحقيقى . وقرر زملاء دفعة عام ١٩٣٨ من الكلية الحربية أن يحتفلوا بمرور ٢٧ عامًا على تخرجهم ، فأقاموا لذلك حفلا ودعوا إليه زميل دفعته عبد الناصر ، وجاء الزعيم فصافح زملاء الدفعة القدامى ، وحين جاء الدور على الفنان أحمد مظهر ، وكان هو الآخر فى قمة نجوميته وبريقه الفنى فى ذلك الوقت ، حياه عبد الناصر وقال له :

- إنت اللى فلحت فىنا !

وضحك زملاء الدفعة واعتبروها نكتة ظريفة من رئيس الدولة . . لكنها لم تكن نكتة ولا مجاملة . . فلقد كانت حياة أحمد مظهر أكثر بهجة وسعادة ومتعة من حياة رئيس الدولة الجافة المثقلة بالهموم والقيود والمسئوليات ، وكان عبد الناصر يقول لزملاء دفعته بهذه العبارة ما قاله أير الطيب المتنبى منذ مئات السنين : إنى بما أنا بالك منه محسود !

وفي التاريخ الإسلامي قصة تنفيها بعض المصادر وتثبتها مصادر أخرى عن ثلاثة من رفاق الصبا جمعت بينهم الصداقة والمودة في فارس في القرن الخامس الهجري ، وتعاهدوا فيما بينهم على أنه إذا أصبح لأحدهم شأن في المستقبل أن يمد يد العون والمساعدة لزميليه ، ثم دارت الأيام دورتها فأصبح أحدهم وزيراً ، وجاءه رفيق الصبا يستنجزانه الوعد ، فسأل كلا منهما عما يريد له لنفسه ، وكان أحدهما شاعراً يجرى وراء عرائس الخيال ولا مطمح له في جاه ولا سلطان ، فطلب منه أن يجرى عليه ما يكفيه مئونة العيش في رخاء ، فأجابه إلى ما طلب .

وكان الآخر طموحاً ومتطلعاً إلى الجاه والسلطان ، فطلب منه أن يوليّه عملاً في ديوانه ، واستجاب له ، فلم يمض وقت طويل حتى بدأ يصطنع لنفسه الأتباع ويتآمر على اغتيال صديقه القديم ، ثم فر بعد انكشاف مؤامراته وأسس فرقة الحشاشين المعروفة في التاريخ ، التي عمدت إلى اغتيال خصومها في الرأي غيلة ، واحتفى مع أتباعه بحصن « الموت » الجبلى المنيع . . وكان من بين من اغتالهم الأتباع ذلك الوزير الذي مد إليه يد العون قبل سنوات ، فأما الشاعر الذي لم يطلب من الحياة سوى العيش في سلام ، فقد كان عمر الخيام . . وأما مؤسس فرقة الحشاشين الذي عاش حياته حتى مماته إما محتمياً في الحصن أو فاراً من جنود الحاكم حتى مات فهو الحسن بن الصباح ، وأما الوزير الذي اغتاله رفيق صباه القديم فهو الوزير السلجوقي نظام الملك .

وأما لو سألتني مَنْ مِنْ هؤلاء الرفاق الثلاثة هو الذي أفلح بحق وفاز

بأفضل نصيب من الحياة بينهم ؟ لأجبتك على الفور : إنه عمر الخيام
.. الذى عاش حياته فى وداعة .. وأثرى الحياة بأشعاره الجميلة ،
وتأملاته الفلسفية التى بقيت على مر الزمن . ولا عجب فى ذلك ، لأن
معايير النجاح نسبية فى النهاية وليست مطلقة ، وكذلك مطالب الحياة
بالنسبة للأشخاص ، فما يعتبر بالنسبة لإنسان هدفًا تافهًا ، قد يعتبر
بالنسبة لشخص آخر غاية المنى ، ولهذا قال الكاتب الإنجليزى الساخر
جوناثان سويفت مؤلف رواية « رحلات جاليفر » الشهيرة : « إن الفقير
قد يتسول كسرة خبز ، أما الثرى فإنه يتسول مملكة ! »

وقال الإمبراطور الرومانى الحكيم ماركوس أورليوس : « يُعجب
العنكبوت بنفسه إذا اصطاد ذبابة ، ويتباهى رجل بنفسه بأنه اصطاد
أرنبًا ، ويفرح آخر إذا أمسكت شبكته بسمكة ، ويسعد ثالث إذا انتصر
فى معركة أو فتح مدينة ! » .

وفى كل حالة من هذه الحالات ، شعر كل إنسان من هؤلاء بأنه قد
حقق هدفًا عزيزًا فشعر بالرضا عن نفسه ، وهذا هو المطلوب دائمًا :
الرضا عن النفس ، وعما أتيح للإنسان من حظوظ الحياة . وأنا شخصيًا
أعتبر النجاح الحقيقى فى الحياة الذى يستحق الكفاح من أجله
والسعى إليه .. هو السعادة الشخصية والعيش فى سلام مع النفس
ومع الآخرين ، أيًا كانت الأسباب التى أتيحت للإنسان خلال رحلة
الحياة .

ولهذا فإننى حين قرأتُ رأى الفيلسوف الألمانى ماكس نوردو فى

النجاح : « يمكننى أن أحصر النجاح فى أن يكون الإنسان محترمًا وذا قدر عظيم فى نظر الكثيرين من الناس » ، قلت لنفسى : إنه لا أحد يكره أن يكون محترمًا وذا قدر عظيم بين الناس ، ولكن ماذا عن السعادة والرضا عن النفس وعن الحياة يا سيدى الفيلسوف ؟

وماذا يُفيد الإنسان أن يكون محترمًا وذا قدر عظيم عند الناس ، وهو تعيش فى حياته الخاصة ، وحزين القلب ، ومنغص البال والنفس بأطماع وطموحات . . يتعذب باللهات المستمر لبلوغها دون طائل ، لأنه كلما نال مطلبًا لم يسعد بما ناله . . وإنما تطلع لما هو أبعد منه بغير أن يشعر بالرضا أو الاكتفاء ؟ !

لقد كان الإمام الفقيه ابن قيم الجوزية يقول : « الرضا هو سكون القلب تحت مجارى الأحكام » . . وحين قرأت هذه العبارة الحكيمة هتفتُ صامتًا : صدقت والله يا مولانا الإمام . . فالمهم حقًا هو سكون القلب وسلام النفس ، سواء أكنت وزيرًا أو خفيرًا ، ولن تستمتع أبدًا بسكون القلب إذا خالطه الكره والحقد والغل والطمع فيما بأيدي الآخرين ، والسخط على ما أتاحته لك الحياة من أسباب ، لأن « كره الآخرين طرد إرادى للسعادة » - كما يقول الكاتب الفرنسى بول فاليرى - كما أنك لن تعرف النجاح الحقيقى أبدًا إلا إذا سعيت إلى أهدافك فى الحياة بالطرق المشروعة ، وبذلت كل جهدك لتحقيقها وأنت تقول لنفسك : أديتُ واجبى وبذلتُ غاية جهدى ، وليس لى من الأمر بعد ذلك شىء ، فإن هطلت على ثمار الكفاح ، فشكرًا للمانع العظيم جل

شأنه ، وإن تباطأ جَنَى الحصاد فلحكمةٍ قَدَّرها ربى ويقصر عنها فهمى
.. والحمد لله على كل حال .

أما أنا فلقد غبطتُ الدرويش الذى رأيته فى مدينتى الصغيرة ذات
صباح غير بعيد وتمنيتُ صفاء روحه وخلو باله ، وغبطتُ « زعيمى »
القديم فى الزمن البعيد - بائع المجلات القديمة فى القطارات - وتمنيتُ
بعض انطلاقه وابتهاجه بالحياة ، ورجوتُ لهما ولى وللجميع : سكون
القلب تحت مجارى الأحكام .. وشكرًا !



كأنه النوم غير المريح

فجأة وجدت نفسي في موطن الذكريات
بيمة .. فتجددت في قلبي أحداثها
عوزها ..

فلقد كنت عائداً بعد منتصف الليل من
نزهة طيب الأسنان بالدقى، وتوقفت أمام
ميدية بشارع المتحف الزراعي لأشتري
اللاء الذي أشار به ، فتلفت حولى متعجباً
كب لم أجد إلى هذا المكان طوال السنوات
الحالية ؟ ثم ابتعدت عن الصيدلية والسيارة
وتنولت باحثاً عن معالم الذكريات القديمة
متائلاً : ترى هل مازالت في مواقعها ، أو
جرى عليها ما يجرى على معظم المعالم
القديمة من الانقراض ؟

ها هو مدخل العمارة القديمة التى أقمتُ فى بنسيون بالدور الأرضى
منها ولما أبلغ من العمر ١٩ عامًا ، فأى معجزة حمت مدخلها الرخامى
من التدهور والإهمال !

وها هو الدرج العالى الذى يرتفع إلى مدخل العمارة وكان يقف عليه
دائمًا بوابها الصعيدى الأسمر بشواربه الطويلة المفتولة . . فنسميه « أبا
شنب » . . أما غرفتى وفراندتها المطلة على الشارع الجانبى فقد كان لابد
من أن أدور حول العمارة لأراها . . فرجعتُ إلى الشارع الجانبى . .
وتأملتُ باب المحل المغلق إلى اليمين وتساءلت : أمازال صاحبه على قيد
الحياة ويفتحه ساعات النهار فقط كما كان يفعل فى أيامنا ؟

اقتربتُ من الفراندة التى تطل على الشارع من ارتفاع قليل وتأملتُها
بحنين غريب ، واسترجعتُ صورتى وأنا واقف فيها فى أوقات الأصيل ،
أنظر إلى الفيلا المواجهة لى وأرقب حياة أصحابها الوداعة . . وأتابع
محاولات ابنة أصحاب الدار - التى لم تكن تتمتع بجمال كبير - للفت
أنظار صديق شقيقها الذى يجىء لزيارته كل يوم تقريبا فترتبك حين تراه
. . وترحب به بحرارة . . وتدعوه للجلوس فى فراندة الفيلا إلى أن
تستدعى شقيقها من الداخل . . وتقدم له مشروب الضيافة قبل أن تبلغ
شقيقها بوصوله ، وتكاد أن تقول له بغير كلمات : لماذا لا تخطبنى وتحقق
أحلامي فى السعادة والزواج ؟ ترى ماذا فعلت الدنيا بهذه الفتاة الطيبة ،
وهل حققت لها الحياة أحلامها ؟

وجدتُ الفيلا على حالها ولم تهدم لترتفع مكانها عمارة شاهقة كالكتلة الصماء ، فاعتبرتُ ذلك أيضًا معجزة أخرى من معجزات هذا الزمان الشحيح في تقديره للجمال . . وتلفتُ إلى الناحية الأخرى لأرى البيت الصغير المكون من دورين ، والذي كان يقيم بدوره الأرضى زوجان يتبادلان الحب والعطف بغير إنجاب ، ويقيم فى دوره الأول « وليم أفندى » صاحب البنسيون الذى أقمت به بالعمارة المجاورة ، ويقيم بدوره الثانى موظف وزوجته الشابة الحسنة ، وشقيقته التى تبلغ السادسة عشرة من عمرها ، فوجدتُ البيت الصغير قد أصابه « وباء » التعلية والتشويه ، واختفت حديقة الدور الأرضى الصغيرة وأقيم فيها صف من المحلات الكثيبة . . فترحمْتُ على الأيام الجميلة التى كان يجلس فيها الزوجان المتحابان فى تلك الحديقة وقت الأصيل يشربان الشاي ويتبادلان المداعبات والضحكات .

كنتُ فى ذلك الوقت فى عامى الجامعى الثانى ، وعامى الثانى أيضًا بالقاهرة ، بعد أن جئت إليها من مدينتى الصغيرة للالتحاق بكلية الآداب ، وكنت قد أمضيتُ عامى الأول بالقاهرة مقيمًا فى غرفة مفروشة بين أسرة موظف بوزارة الأوقاف بشارع الدقى ، وكان تقليدًا شائعًا بين بعض الأسر المقيمة بالقرب من جامعة القاهرة أن تؤجر إحدى غرف مساكنها لطالب صغير مغترب مثل لقاء أجر شهرى . . ومقابل أن تهتم بأمره كأحد أفراد أسرتها ، فترعى شئونه وتراقب سلوكه وتكتب لوالد الشاب إذا بدرت منه أية بادرة انحراف . وكانت الأسرة التى أقمتُ بين

أفرادها في ذلك الوقت أسرة مصرية طيبة . . ربّتها أم رؤوم لثلاثة أطفال ، تتعامل مع مَنْ يقيم لديها بعطف الأمهات أكثر مما تتعامل معه بمنطق صاحب المسكن ، وكان الأب أيضًا رجلًا فاضلاً يهتم بالسؤال عن أحوال دراستي ومذاكرتي ، ثم انتهى العام الجامعي . . وحين موعد عودتي لمدينتي في إجازة الصيف ، فسألتنى ربة الأسرة في إشفاق :

- ألن ترجع للإقامة لدينا في العام القادم ؟

فتفاديتُ الإجابة الصريحة ، وتجنبتُ النظر إليها لكيلا تغلبني دموعي عند الوداع ، وأسرعتُ بمغادرة البيت ، فلقد كنت قد قررت رغم استمتاعي بالإقامة مع هذه الأسرة ، أن أقيم في عامي التالي بينسيون قريب من الجامعة لكي أخوض تجربة الحياة الاستقلالية الكاملة ، ولكي أتمتع بحرية استقبال الأصدقاء في أى وقت بلا حرج . . فأنا إنسان كثير الأصدقاء بطبيعتي ، وقد اعتدت في صباى أن أستيقظ من نومي خلال الإجازة الصيفية فأجد عددًا من الأصدقاء جالسين في نفس الغرفة يشربون الشاي ويلعبون الشطرنج ويتبادلون الأحاديث الطلية في انتظار صحوى ! أما كيف دخلوا ؟ . . فلقد جاءوا يسألون عنى فقليل لكل منهم : تفضل بإيقاظه ! واقتيدوا إلى غرفة نومي ، ولحق بهم الشاي بعد قليل . . ومن حين لآخر راح أحدهم يحاول إيقاظي ، فأتنبه للحظات وأحيى الضيوف ، وربما أتبادل معهم أيضًا كلمات المشاكسة ، ثم أرجع للنوم مرة أخرى ، وهكذا عدة مرات قبل أن أنهض في النهاية لتناول طعام الإفطار مع الأحباب !

ولهذا فقد وجدتُ صعوبة كبيرة في احتمال الحياة بلا أهل ولا أصحاب في بداية انفصالي عن أسرتي ، وتطلعتُ إلى اكتساب صداقات جديدة من بين زملاء الكلية تعوضني عن أصدقاء الصبا الذين اتجهوا جميعًا لكليات جامعة الإسكندرية الأقرب لمدينتي ، ولم تمضِ شهور حتى كنت قد اكتسبتُ عدة صداقات جديدة بالفعل ، وبدأ الأصدقاء الجدد يزورونني في مسكني وسط هذه الأسرة ، وبدأتُ أستشعر الحرج من ربتها رغم عدم تدميرها من زيارات الأصدقاء ، فرجعتُ مع بداية العام الدراسي التالي وأقيمت في هذا البنسيون مقابل أجر شهري « باهظ » هو ستة جنيهات كاملة ! وكان جيرانني به طالبًا فلسطينيًا وآخر جزائريًا وثالثًا مغربيًا ورابعًا مصريًا ! فتوثقت العلاقات بيننا بقدرة الشباب على التآلف السريع مع الآخرين . . . وتبادلنا الاحترام والمودة والتضامن في مطالبنا من صاحب البنسيون بإصلاح سباكة المطبخ والحمام . وكنت قد بدأتُ تدريبي بجريدة الأهرام . . . وتفرغتُ له شهور الدراسة الأولى ، ثم اقترب امتحان التيرم الأول فاستأذنت رئيسي في إجازة لمدة شهر للاستعداد للامتحان ، وبدأ الأصدقاء الجدد يتوافدون على غرفتي بالبنسيون للاستذكار معًا ، ثم حمى وطيس معركة المذاكرة فحمل أكثرهم ملابسه وأقام عندي إقامة دائمة ، وتحولتُ غرفتي بالبنسيون إلى خلية نحل تعمل ٢٤ ساعة كل يوم تتوزع فيها نوبات النوم على الفراش الوحيد بالعدل بين الأصدقاء على مدار اليوم كله ، فنام فيه اثنان في الهزيع الأخير من الليل ، واثنان في الظهر ، واثنان في المساء ، واثنان في

أول الليل وهكذا . . . في الأرض بعد ذلك متسع لمن أراد حصة إضافية من النوم ، ولا تسلى نبف كنا نستطيع الاستغراق في النوم وإلى جوارنا من يذاكرون بصوت عال أو يضحكون من الأعماق على نادرة عابرة ، أو يأكلون ويصخبون بلا حرج من النائمين ، فهذا هو الفارق بين نوم العافية في مرحلة الشباب ، وبين النوم المضطرب الخاطف والاستيقاظ لأي بادرة إزعاج في مراحل العمر الأخرى .

وكان وليم أفندي صاحب البنسرين موظفًا بوزارة الزراعة ويعين نفسه وأسرته بهذا العمل الإضافي ، ويتردد على البنسيون من حين لآخر ليتفقد الأحوال ، فجاء ذات مرة ورأى باب غرفتي مفتوحًا وفي الفراش صديقان مستغرقان في النوم ، وعلى المكتب ثلاثة يذاكرون باهتمام ، وعلى الكنبه اثنان آخران يقرآن دروسهما . . . وفي الفرنادة ثلاثة يحتلون باقى مقاعد الغرفة ، وعلى الأرض صديق لم يجد مقعدًا له فافترش «أما الأرض» على حد تعبير الفيلسوف الإغريقى القديم ، فتأمل المشهد للحظات باسمًا ثم قال لى : لو حاسبتك على عدد «الرؤوس» التى تبيت فى هذه الغرفة ، لطالبتك بأضعاف أضعاف ما تدفع من إيجار ! وجاء مرة أخرى فى الصباح وكنا كلنا فى الكلية نؤدى الامتحان ، فوجد ورقة صغيرة معلقة على باب غرفتي تعلن أن : «لوكاندة النوم المريح لصاحبها فلان . . . ومديرها فلان . . . وفراشها فلان . . . وزبائنها فلان وفلان وفلان إلخ ، مغلقة مؤقتًا لظروف أداء الامتحان فى مادة التحرير الصحفى اليوم ، وستفتح اللوكاندة أبوابها من جديد بإذن الله فى الرابعة

مساء لاستقبال الزبائن ! فطير الورقة ورجع بها إلى زوجته ضاحكاً
ليشهدها على ما يفعل هؤلاء اطة الشياطين ! ثم يتندران بهذه الورقة
بعد ذلك طويلاً .

وقد اختص الصديق الذى نب هذا الإعلان نفسه بوظيفة
«الفراش» ، لأنه كان أكثرنا سباحة نل وأسرعنا فى الاستجابة لطلبات
الأحباب من الشاى والقهوة ، فينهض لصنعها فى المطبخ مُسلماً أمره
لله ، ولأعنا اليوم الذى أصبح فيه « خاداً لأبينا » !

أما صاحب المحل الذى وجدتُ باباً مغلقاً وأملتُ أن يكون مازال
يواصل عمله ، فلقد كان بقالاً صغيراً ضيف إلى بقالته بيع الفول
والطعمية فى الصباح فقط ، وكان فى الأيام العادية يعد لى سندوتشات
الفول والطعمية الساخنة ويلفها فى غلاف محكم ، ثم يلقي بها إلى
الفراندة فتصطدم ببابها الخشبي . . ويتبع بصيحة واحدة لا تتكرر
مرتين وهى : يا فلان افندى . . اصح ! ثم يرجع فى هدوء إلى محله ،
وأصحو أنا لا على صوته ، ولكن على صوت ارتطام « القنبلة » التى
يقذف باب غرفتى بها كل صباح ، ويواظب نلى ذلك كل يوم بانتظام
ولا يحاسبنى عما « قذفتى » به إلا فى أول الشهر أما فى موسم الامتحان
وازدهار نشاط لوكاندة النوم المريح ، فلقد كان يضطر للخروج على
عادته والمجئء إلى البنسيون فى الصباح حاملاً « حَلَّة » كبيرة من الفول
وكمية ضخمة من الطعمية . . ولوحاً من الجريد فوقه ٣٠ رغيفاً من
الخبز .

أما طعام الغداء فلقد كان يجيئنا به بعد إغلاق هذا الرجل لمحله في الأصيل صبي صغير رأيته يلعب في الشارع أمام العمارة . . ويبدو كالمشردين ، فأغريته بالعمل بالبنسيون بدلاً من التشرّد في الشوارع واستجداء المارة ، واقتنع بالفكرة ، فعينته « قرّاشاً » في البنسيون بأجر شهري كبير قدره جنيه واحد ! واستأذنتُ وليم أفندي في ذلك ، فأذن به بشرط أن أحمّل أنا « مرتبه الكبير » الآن ميزانية البنسيون لا تحتمل أية مرتبات للخدمة ، وسعد هذا الصبي بعمله الجديد ، وسعدنا نحن أيضًا به ، وانهالت عليه قروش الأصدقاء وبقشيشهم ، وتشجيعهم له على العمل الشريف بدلاً من مصاحبة المشردين وتعلم سلوكياتهم المنحرفة ، وكان قد « تعلم » بالفعل تدخين السجائر فنهيته عنها بشدة ، واستجاب لرغبتي ، وتحول إلى شخص آخر ، خصوصاً بعد إرغامه على دخول الحمام ، فبدأ في صورة جديدة ، وتحسن مظهره وصحته وطريقته في الكلام والسلوك بفضل صحبته لهؤلاء الأفندية من طلبة الجامعة الذين علموه كيف يتحدث وكيف يتصرف في المواقف المختلفة . وقد استمر هذا الصبي في عمله بالبنسيون حتى بعد مغادرتي له وانتقالى إلى مسكن خاص بى بالمنيل ، وواظب عدة سنوات بعد ذلك على زيارتي بالمنيل في أيام الجُمع لقضاء بعض مطالبى ، وكلما جاءنى سألتنى عن أصدقاء الزمن القديم : فلان أفندى . . وفلان أفندى . . إلخ ، حتى غادرتُ حى المنيل كله وانقطعت الصلات بيننا ، فترى ماذا فعلت به الأيام ؟

لقد كاد هذا الصبي الصغير أن يحدث « فتنة » بيننا وبين أحد

أصدقائنا من زبائن لوكاندة النوم المريح من حيث لا يدري ولا يحتسب ،
فلقد كان من بين هؤلاء الأصدقاء صديق معروف بيننا بحبه للنوم لفترات
طويلة واستمتاعه بالكسل وقلة الحركة وضيقه بأى أمر أو طارىء يدعو
للنهوض من مجلسه ، ويصبر على الجوع أو العطش حتى يجيئه من يكفيه
مثونة الحركة وينهض بدلاً منه لإحضار ما يحتاج إليه ، حتى أطلقنا عليه
لقب « التملبل » . . وكانت روحه مطمئنة دائماً للحياة وللمستقبل ووثقة
من الغد ، ولا يرى داعياً للانزعاج لأى شىء أو للقلق على المستقبل أو
الطموح المهنى ، لأن كل شىء على ما يرام ، وسوف يجيئ كل شىء فى
موعده ، فلعله كان فى ذلك من أنصار الفيلسوف الألمانى المتفائل ليبنتز
الذى كان يقول : « كل شىء على ما يرام . . وهذا العالم هو أفضل عالم
يحتمل أن يكون موجوداً فى الكون » مع أنه لم يكن قد سمع باسم ليبنتز
ولا بفلسفته فى التفاؤل ، كما كانت له « قيلولة » يومية يحرص عليها فى كل
الأوقات ، وتمتد من الرابعة مساءً إلى أن نوقظه نحن منها « بالطبل
البلدى » فى الثامنة مساءً ! وقد صحا ذات مرة من قيلولته بعد جهد
جهيد ففتح عينيه فى تراخ . . وتلفت حوله ثم قال لى فى « حنين »
عجيب :

- يا سلام يا فلان لو أحلنا إلى المعاش . . واستمتعنا بالنوم طول

النهار !

فيا إله السموات أن يحلم شاب بالإحالة للمعاش ونحن لم نبلغ بعد
سن العشرين ، بل ولم نعيّن أصلاً فى وظائف رسمية لكى نحال منها

للمعاش عند الستين ، وإنما نتدرب في الصحف بالمكافأة وبلا عقود للعمل . . فهل ترانا قد خالفنا منطق الأشياء حين أطلقنا عليه لقب التمبل؟

وهل جاوز هذا الصبي الصغير الحقيقة حين جاءنا ذات يوم - بعد أن سمع هذه الكلمة تتردد على ألسنتنا مرارًا للإشارة إلى هذا الصديق- فقال لنا أمامه إن بواب العمارة يرغب في التحدث إلى فلان أفندى التمبل؟

لقد ضحكنا من أعماقنا للمفارقة وغضب لها صديقنا بشدة ، وتصور أننا قد أهناه وجرأنا عليه هذا الصبي الصغير ، ولم يصدق إلا بعد جهد جهيد أن الصبي يتصور فعلاً أن كلمة التمبل هي لقب عائلته وليست سبباً ولا تجريحاً ! وانتهت الأزمة بعد عناء كبير ، وبعد أن نبهنا على الصبي ألا يعود إلى تكرار هذه الكلمة ، فإذا سألتنى ماذا حقق هذا الصديق في حياته وهو الذى كان يحلم بالإحالة للمعاش فى سن العشرين ، لأجبتك بأنه - على خلاف ما تتوقع - قد حقق بذكائه واجتهاده فى حياته العملية نجاحاً كبيراً ، لكنه حقق ما حققه بالنفس الهادىء غير المهزول ولا المتعجل للأهداف ، وبالثقة المطمئنة إلى الغد ، والقدرة على الاستمتاع بالأشياء فى الوقت نفسه ، وهذا هو الفارق بينه وبين غيره من زملاء رحلة العمر !

وعلى هذا المنوال عشتُ عامًا كاملاً فى هذا البنسيون الذى لم أجد

الفرصة - للأسف - لأعرف هل مازال مفتوحًا للنزلاء ، أم تحول صاحبه عن مشروعه التجاري منذ زمن طويل ؟

وحين رجعتُ إلى سيارتي بعد أن طفتُ طوافي الممتع بموطن الذكريات وجدتني أقول لنفسي : إن السعادة كانت تقيم بين ظهرائنا ونحن نتكدر في غرفتي الضيقة بهذا البنسيون حتى لا يجد الإنسان أحيانًا مكانًا يمد فيه ساقيه ويستريح !

وتذكرتُ الحكمة البوذية القديمة التي تقول : « إن لكل إنسان منا شمس .. واحدة في السماء .. وواحدة في داخله » وإنه حين تغيب شمس السماء ويظلم الكون فلا يضيء للإنسان حياته إلا شمسه الداخلية ، وإنه لهذا السبب فلا بد أن يحتفظ الإنسان بها متوهجة دائمًا بالأمل في الغد .. وبالرضا عن الحياة ، وبالقدرة على تجديدها وتجديد الأهداف في كل مرحلة من مراحل العمر ، وبالاستمتاع بالعلاقات الإنسانية ، وأنس الصحبة الصافية ، والود الصادق ، والابتهاج بأتفه الأشياء .. وتذوق الجمال في كل شيء .

لقد كانت « شمسنا الداخلية » في ذلك الزمان السعيد ساطعة دائمًا ومتوهجة أبدًا بالأمل في الغد رغم كل الصعوبات ..

فإياك يا صديقي أن تطفىء هذه الشمس الداخلية داخلك ، وإلا خيم الظلام على حياتك وأطبق اليأس والإحباط عليك من كل جانب ، فتفقد القدرة على تذوق الحياة .. بل عن تحملها !



ذكرى ليلة صيف

كانت بحق ليلة لا تنسى !

فلا عجب إذن أنى لم أنسها حتى الآن ،
ولم ينسها طرفاها الأساسيان .. وما أظنهما
سوف ينسيانها إلى نهاية العمر .

ففى أوائل السبعينيات كنت أقضى سهراتى فى مقهى سوق الحميدية
بباب اللوق . . فأتوجه إليه كل ليلة عقب انتهاء عملى بالأهرام ، وأجد
دائمًا شلة الأصدقاء فى الانتظار . . فأقضى معهم بضع ساعات ،
أستريح خلالها من عناء العمل ، وأشعر بالألفة والإيناس بينهم ، فإذا
نهضتُ لمغادرة المكان والعودة إلى البيت تحكمتُ المقادير وسيارتى
الصغيرة البالية فى الموعد الذى أهرجع فيه إلى فراشى ، فقد تكون ليلة
سعيدة فأدير المفتاح فى موتور السيارة ، فيستجيب على الفور ، وأنطلق
بها عائداً إلى بيتى . . وقد « يعصلج » الموتور فى الدوران ، فأحتاج إلى
وقت طويل لإدارة السيارة وتحريكها ، وقد يتطلب الأمر فى بعض
الأحيان طلب المساعدة من ميكانيكى السيارات القريب . . أو محل
الإطارات المجاور له لتبديل أحد إطارات السيارة ، وقد يغلب اليأس
على الجميع . . وأسلم مفتاح السيارة للمنادى وأنقذه خمسين قرشاً لكى
يتولى حراستها فى الليل إلى أن يطلع الصباح ، ويقوم الجرسون الصديق
بالإشراف على إصلاحها ، وأستقل أنا سيارة أجرة إلى بيتى . ولست
أدرى حتى الآن أى شىء بالتحديد كنت أطلب « حراسة » هذه السيارة
البالية منه ، وليس فيها ما يغرى أحداً بسرقة ؟ لكنه إحساس الإنسان
المُغالى فيه دائماً بقيمة ما يملكه من أشياء حتى لو كانت لا تعنى
للآخرين شيئاً .

وفى تلك الليلة دخلتُ إلى المقهى قرب العاشرة مساءً مبكراً بعض
الشيء عن موعدى المعتاد ، فلم أجد أحداً من أفراد الشلة ، ووجدتُ

صديقًا قديمًا يجلس إلى مائدة جانبية مع خطيبته - وهي زميلته أيضًا في العمل - ولاحظتُ للوهلة الأولى أن في الجو غيومًا تخيم على سماء الخطيبين المرتبطين بعلاقة حميمة منذ أكثر من عامين ويغالبان ظروفهما، ويأملان في تنويع ارتباطهما بالزواج ذات يوم قريب ! وتوقعْتُ أن يكونا في حاجة إلى انفرادهما بنفسيهما في هذه الظروف ، فحييتهما واتجهتُ إلى مائدة بعيدة ، لكن صوت الصديق لاحقني داعيًا إياي لمشاركتها الجلسة ، وشاركتُهُ خطيبته الدعوة بالحاح . . فاتجهتُ إليهما متوجسًا ، ولمحتُ أثر الدموع في عيني الخطيبة الواجبة ، ومضت دقائق كان الصديق خلالها مستغرقًا في التفكير والوجوم ، ثم بدا لي وكأنه قد ضاق بشجونه وأفكاره ورغب في حسم ما يشغله من أمور ، فقال لي فجأة متجهما :

- فلان ! . . أنا وفلانة نريد أن نتزوج !

فلم أفاجأ بهذه الرغبة ، وأنا أعلم أن كلاً منهما قد اختار الآخر ، وينتظران تحسن الأحوال المادية لكي يتوجعا حبهما بالزواج .

فلم أجد ما أقوله سوى : وما الجديد في ذلك ؟

فأجابني في هدوء : نريد أن نتزوج الآن !

فسأله مستوثقًا : الآن . . الآن ؟

فأجابني بالإيجاب . . وأدركتُ عيني إلى الخطيبة فرأيت علامات الارتياح تتسلل إلى وجهها لأول مرة ، وأدركتُ على الفور أنها كانا

يتجادلان حول مستقبلها ، وأنها قد ضاقت بالانتظار الطويل لتحسن الأحوال بلا جدوى . . وبدأت تشكك في جدية سعى رفيقها لإتمام المشروع . . . صارحته بشكوكها ، فأراد حسم الظنون بالإقدام على الخطوة الإيجابية التي لا تدع مجالاً لأي شك ، وتصورتُ كذلك أنها كشابين مكافحين قد أدركا بعد طول عناء أن الانتظار الطويل إن لم يُحسَم بعمل إيجابي فقد يؤدي إلى تمييع العلاقة . . والاستسلام للظروف القاسية ، واليأس من إتمام الزواج ذات يوم قريب . .

جال كل ذلك في خاطري ، فوجدتني - ولا أعرف حتى الآن كيف - أتعامل مع ما أبداه لي الصديق من رغبة بواقعية شديدة وهدوء أشد ، وكأنها لم يعرب لي سوى عن رغبته في أن أدعوه إلى فنجان من القهوة!

ولم أنطق بكلمة أخرى ، وإنما استأذنتهما في الغياب لحظة ، ونهضتُ إلى تليفون المقهى وطلبت صديقاً من أفراد الشلة يقيم بشارع قصر العيني القريب ، ورجوته مغادرة بيته وانتظاري على الرصيف المقابل له لأنني سأمر عليه لاصطحابه في مشوار عاجل بعد عشر دقائق ، ورجعتُ إلى الصديقين فأكملتُ احتساء فنجان القهوة ثم دعوتهما إلى النهوض ، واتجهنا إلى السيارة ، وقُدَّتها إلى شارع قصر العيني حيث وجدتُ الصديق في انتظاري . . فدعوته إلى الركوب ، فركب وهو يدير عينيه حوله في اندهاش ظاهر ، يحاول أن يفهم ما يجري حوله بلا جدوى ، ولم أشف غليل دهشته وفضوله . . وإنما طلبتُ منه الانتظار ولسوف يفهم

كل شيء في حينه . . ثم قدتُ السيارة إلى حي عابدين وتجولتُ بها في الشوارع وأنا أقرأ لافتات المكاتب المعلقة على المنازل ، إلى أن توقفتُ أمام إحداها . . ودعوتُ الجميع إلى النزول .

وصعدنا السلم إلى غرفة مكتب بسيطة في الدور الأول . . ووجدنا في انتظارنا شيخاً متوسط العمر يجلس إلى مكتب خشبي متواضع . . رد تحيتنا ببشاشة ، ودعانا إلى الجلوس ، ثم تساءل مبتسماً : زواج إن شاء الله أم طلاق لا قدر الله ؟

فأسرعتُ أجيبه بأنه زواج إن شاء الله . . !

وقدمتُ إليه بطاقتي الشخصية ، وقدم الآخرون بطاقتهم ، فانشغل بعض الوقت بتسجيل البيانات ، ودعا العروسين إلى التوقيع على الوثيقة . . ودعانا نحن للتوقيع عليها كشاهدين ، ثم التفت إلى العروسين باسماً ، وطلب منهما أن يمسك كل منهما يد الآخر . . ووضع منديله فوق يديهما ، وبدأ بقراءة الصيغة الشرعية للزواج ، ابتداء من حمد الله جل شأنه وشكره على أن خلق لنا من أنفسنا أزواجاً لنسكن إليها ، إلى الثناء على رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، الذي هدانا إلى الخير ، وقال لنا ما معناه : خيركم . . خيركم لأهله . . وأنا خير الناس لأهلي (والأهل هنا هي الزوجة وشريكة الحياة) . . حتى بلغ الإشارة إلى اتمام هذا العقد على سنة الله ورسوله ، وعلى مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان رضى الله عنه . وختاماً بدعوتنا جميعاً إلى رفع الأيدي وقراءة الفاتحة والدعاء للعروسين بالتوفيق في حياتهما المقبلة بإذن الله .

وشاركك في كل هذه المراسم وجسمى يقشعر بجلال الموقف ، ورهبة المناسبة التي تجمع بين حبيين على إرادة السعادة ، في ظلال طاعة الله سبحانه وتعالى ورسوله ، ومشاعري تتراوح بين الابتهاج بنشوه هذه المناسبة والمساعدة على تحقيقها ، والإحساس الغامض بالشجن والرغبة الخفية في البكاء بلا سبب واضح . أما العروس فلقد أراحت نفسها من عناء كبت المشاعر ومثونه التحفظ التي تكبدها أنا ، وأطلقت العنان لدموعها لتسيل على وجهها باسم حتى رقت لها قلوبنا جميعاً ، وكنت أعرف من ظروفها أنها فتاة طيبة يتيمة الأب تعيش مع والدتها ، وتحلم بالسعادة والاستقرار والعيش في هدوء إلى جوار من أحبه قلبها بصدق . . فازددت إشفاقاً عليها وأملأ لها في أن تهبها الحياة كل ما ترجوه لنفسها . وانتهت المراسم ، وجاء وقت « الحساب » ، فسألنا الشيخ الطيب عن أتعابه ، فإذا به يقول لنا ببساطة : خمسة جنيهاً فقط !

وكان هذا المبلغ وقتها هو الأتعاب الشائعة في أوساط البسطاء لعقد القران ، أو لعل الرجل قد أدرك الظروف المحيطة بشابين يجيئان إليه بلا أهل سوى صديقين لهما في مكتبه بعد العاشرة مساءً ليعقدا قرانهما عنده وليس في بيت الأسرة ، فأراد التخفيف عنهما مراعاة لواقع الحال .

وانصرفنا من مكتبه والعروس لم تحجب دموعها بعد . . ودعوتُ الجميع إلى الاحتفال بالمناسبة السعيدة ، لكنها اعتذرت وفضلت التوجه إلى البيت مباشرة مع خطيبها أو زوجها لكي تبلغ والدتها بالخبر السعيد ، وتطمئنها إلى أن سفينتها قد استقرت في النهاية في مرفأ الزواج والأمان .

وفارقنا العروسين عند بيت الأم ، ورجعنا إلى المقهى أنا وصديقي الذى لم تفارقه الدهشة طوال الوقت منذ ركب السيارة حتى ودعنا العروسين ، ومن حين لآخر يميل إلى ويسألنى هامسًا : إيه الحكاية؟ . . فلا أجيبه سوى بدعوته إلى الصبر والانتظار ، إلى أن خلونا بنفسينا فى السيارة عقب انصراف العروسين ، ورويتُ له « الحكاية » من البداية وأشبعْتُ فضوله بتفاصيلها ، وذهبنا إلى المقهى سعيدين بما مكنتنا الله سبحانه وتعالى من القيام به لتتويج حب هذين الشابين بالزواج .

أما العروسان فلقد تغلبا على المشكلات التى كانت تبدو لهما - قبل الإقدام على هذه الخطوة الجريئة كالجبال الشاهقة - خلال عام أو عامين ، وتمكنا من إنشاء عشهما الصغير بعد رحلة كفاح مجيدة . . وأما السنوات فقد مضت بعد ذلك . . وما كان يبدو للعريس المتردد أنه مستحيل الوقوع قبل البداية ، تحقق له بعد اقتحام المشكلة بالإرادة والكفاح والتعاون بين حبيبين اختار كل منهما الآخر ، واحتفى به فى وجه مصاعب الحياة . وأما عشرتهما فلقد دامت واستقرت وأثمرت أجمل الثمار ، وتجاوز العريس كل الصعاب وتقدم فى حياته العملية وشغل المناصب المرموقة فى مجاله ، وقدم مع شريكته للحياة أبناء نشأوا فى بيت عامر بالحب والإخلاص والوفاء ، وأما أنا فلقد باعَدَتْ مشاغل الحياة بينى وبين هذا الصديق فلم نعد نلتقى إلا لَمَامًا . . لكننا ما أن نلتقى حتى يشعر كل منا بأنه فى حضرة صديق حميم يأنس إليه ويفتح له قلبه ويشعر معه بزوال كل الحواجز والفواصل . وما من مرة التقيتُ به فيها أو

سمعت صوته عبر التليفون إلا وذكرني بأننى « عمه » الذى زَوَّجَهُ من شريكة حياته ، بالرغم من أنه يماثلنى فى العمر ، وإلا وكرر على القول إنه مدين لى بسعادته فى حياته العائلية مع شريكته الطيبة العطوف ، لغير شىء سوى أننى قد تعاملتُ بواقعية وجدّية غريبة - كما يقول - مع الفكرة « المجنونة » التى طرأت عليه فجأة تلك الليلة فى المقهى ، وأراد بها أن يطمئن فتاته إلى صدق رغبته فيها وتمسكه بها بعد أن ضاقت بطول الصبر والانتظار وهو اجس الخوف من المجهول ، ولولا ذلك - كما يقول - لربما كانت سنوات أخرى ثمينة من العمر قد ضاقت قبل أن يجد فى نفسه الشجاعة للإقدام على هذه الخطوة التى لم تكن تؤهله ظروفه وقتها لها ، ولربما أيضًا كانت فتاته قد يئست منه ، وتشككت فى جديته وإخلاصه . . . واتجهت إلى طريق آخر بعيد عنه ، لكن رُبَّ « جنون » قد يكون فى بعض الأحيان أكثر حكمة من التحسب الشديد للأشياء الذى يغفل الإرادة ويمنع الفعل ! . . . ورُبَّ فكرة « طارئة » تكون فى بعض الأحيان أفضل من كثرة التردد والتدبير وطول الأناة !

أو هذا على الأقل هو ما أكدته التجربة التى كنتُ شاهداً عليها لهذا الصديق .

فما رأيك أنت ؟

«فكّيت» الجنيه ؟!

كنتُ صحفيًا شابًا في بداية العشرينيات من عمري ، وقد سافرت إلى الإسكندرية في الشتاء لأقضى بها - كعادتي في ذلك الحين - بضعة أيام مع أصدقاء الطفولة الذين فرّقت بيني وبينهم الدراسة الجامعية ؛ فالتحقوا هم بكلّيات جامعة الإسكندرية القريبة من مدينتنا بالوجه البحرى ، و « هاجرتُ » أنا وحيدًا إلى القاهرة لألتحق بكلية الآداب ؛ لأنها كانت الوحيدة التى تدرّس الصحافة فى أحد أقسامها فى ذلك الوقت .

وكان الأصدقاء في ذلك الصباح الشتائم المنعش في أعمالهم ،
فخرجت وحيداً أتجول في منطقة « محطة الرمل » وأتسكع أمام أكشاك
الكتب والصحف .. ثم ركبْتُ ترام الإسكندرية الشهير عائداً إلى بيت
الصديق الذي نزلتُ ضيفاً عليه ، وجاءني « الكمسارى » ، فأخرجتُ
جنيهاً وقدمته له ، فاعتذر لعدم وجود « فكة » معه ، وطلب قرشين -
هما أجرة الركوب بالدرجة الأولى من الترام في ذلك الوقت -
واعترتُ أنا بدورى بأننى لا أحمل أية فكة .. فأصبحتُ أزمة ! وتجادل
الكمسارى معى ، وتجادلتُ معه ، وشاركنا بعض الركاب في البحث
عن حل للمشكلة .. فقام أحدهم بفك الجنيه إلى ورقتين من فئة
الخمسين قرشاً ، وتطوع آخر بفك ورقة منهما ، وقدمتُ للكمسارى
ثمن التذكرة ، وحُلَّت الأزمة في النهاية .. ثم انتهت إجازتى بين
أصدقائى ، ورجعتُ إلى عملى الصحفى بالقاهرة .. وبعد أسبوع من
عودتى كنت أُجرى تحقيقاً صحفياً عن القضاء .. واحتجتُ إلى مقابلة
وزير العدل - وهو وقتها المستشار عصام الدين حسونة - وكنتُ قد
التقيتُ به قبلها عدة مرات وهو محافظ لبنى سويف ، وأجريتُ معه
عدة تحقيقات صحفية . فاتصلت بمكتبه وطلبت موعداً معه ..
وتحددت المقابلة في التاسعة صباحاً بمكتبه في الوزارة ، وتوجهتُ إليه
في الموعد المحدد .. فما إن دخلتُ عليه حتى بادرنى بسؤال عجيب
وغير متوقع .. هو :

- فكّيت الجنيه ؟

وأزّيج على الأمر ، فلم أفهم السؤال .. ونظرتُ إليه مندهشًا .. فإذا به يستغرق في الضحك ، فجمعتُ شتات نفسي وسألته : أى جنيه يا سيادة الوزير ؟ فأجاب وهو لا يزال يضحك : جنيه الترام في الإسكندرية لكى تدفع ثمن التذكرة !

وتذكرتُ الواقعة .. وضحكتُ لها وتعجبت : كيف علم بأمرها؟! .. وقبل أن أسأله عن ذلك كان قد أخبرنى أنه كان راكبًا الترام نفسه ، ورأنى ، وتابع الجدال بينى وبين الكمسارى يشغف واهتمام ، إلى أن تطوع الركاب بحل الأزمة .. وروى لى أنه قد همّ بأن يعرض على إقراضى قرشين لدفع ثمن التذكرة على أن أردّهما إليه حين ميسرة ! فما إن فكر فى ذلك حتى كانت الأزمة قد انتهت بسلام ، فأعاد القرشين إلى جيبه والتزم الضمت !

وضحكنا للقصة طويلاً .. وسألته عن موقعه فى عربة الترام طوال هذه المجادلة ، وتعجبت : كيف غابت عني رؤيته خلال ذلك ؟ .. ثم انتقلنا إلى الموضوع الذى ذهبتُ إليه من أجله .. وسجلتُ آراءه فيه ، ونشرت التحقيق ، فما من مرة لقيته فيها بعد ذلك فى مكتبه بالوزارة أو فى حفل عام كان مدعوًا إليه إلا وبادرنى ضاحكًا بالسؤال نفسه أمام كبار رجال القضاء : فكّيت الجنيه ؟ .. ثم استمتع بارتباكى وتعثرى فى

الإجابة عن أسئلة معاونيه من كبار المستشارين عن حكاية هذا «الجنيه»
الذى يشغل وزير العدل !

أما لماذا تذكرتُ هذه القصة القديمة فجأة .. فلأننى كنت قبل أيام
أتناقش مع أحد الأصدقاء حول الكبار والصغار فى المناصب العليا ..
وأروى له بعض ذكرياتى الصحفية عن عرفتهم من « الكبار » فى
مناصبهم ، وبعد مغادرتهم هذه المناصب ، وعن « الصغار » الذين كانوا
كذلك وهم فى مناصبهم الرفيعة ، وازدادوا صغرًا وضآلة بعد أن
غادروها .. ولقد كان المستشار عصام الدين حسونة واحدًا من هؤلاء
الكبار فى مناصبهم .. وفى خارجها ، ومن هنا تذكرتُ قصتى معه .

فأما أول مَنْ لفت نظرى إلى هذا الفرق الجوهرى بين الكبار
والصغار ، فلقد كان الإمام محمد عبده الذى قال ذات يوم : الرجل
الكبير يرى نفسه أكبر من منصبه ، فلا يهلع حين يغادره .. والرجل
الصغير يرى منصبه أكبر منه ، فيهلع حين يغادره !

ولأننى قد بدأتُ العمل الصحفى فى سن السابعة عشرة ، فلقد
تمرسْتُ فى سن مبكرة على التعامل مع شاغلى المناصب العليا ، فرأيتُ
فيهم من ينطبق عليه قول الإمام محمد عبده ، ويُعدون من الكبار حقًا
وصدقًا ، سواء بقوا فى مناصبهم أو غادروها .. ورأيتُ منهم كذلك
من لا قيمة حقيقية لهم كبشر وأشخاص ، سواء بقوا فى مناصبهم .. أو

غادروها ! ومن عجب أننى لمستُ في هذا النوع الأخير بالذات كل
أمراض السلطة ، من الاستعلاء والغطرسة ، والتسلط ، والاعتداد
الكاذب بالنفس إلى حد الغرور ، والاستهانة بأقدار الآخرين .. فلا
عجب إذن في أن سمح لي العمر بأن أرى في كثيرين منهم برهان ربي
وتذكرته ممن ينسون أنفسهم وهم في غرور القوة والتسلط ! ولا عجب
في أن يكون هؤلاء بالذات هم أكثر الناس هلعًا حين يفقدون
مناصبهم .. ولا في أن ينهال عليهم تراب النسيان بمجرد مغادرتهم
مناصبهم ، وقد كان كل منهم يظن نفسه نجمًا ساطعًا في سماء الزمان !
ولا عجب كذلك أن يذكرني بعضهم بيت الشعر القديم للشاعر
محمد الأسمر الذي يقول فيه :

وأحسن من نيل الوزارة للفتى

حياة تُريه مصارع الوزراء !

أنى تغير الأحوال ببعضهم ، وصعود البعض وهبوطه ، وانفضاض
الدنيا من حول مَنْ لم يرع الحق والعدل ، ونسى نفسه ، وتملكه الغرور
والكبرياء في حال إقبال الدنيا عليه ..

فإذا كنتُ قد تذكرت في حديثي مع هذا الصديق واحدًا من هؤلاء
الكبار - وقد عرفتُ منهم عددًا لا بأس به كانوا كبارًا بحق وهم في

مناصبهم الرفيعة ، وظلوا كذلك بعد أن غادروها - فمن حَقَّك على أن أروى لك كذلك تجربة لي مع واحد من النوع الآخر .. وقد عرفتُ منهم خلال رحلة عملي الصحفي أيضًا عددًا آخر لا بأس به !

أما هذا المسئول الذي أحدثك عنه فقد تولى إحدى وزارات الخدمات التي يقرض على إشرافي على « بريد الأهرام » التعامل مع وزرائها لحل مشكلات قراء البريد لديهم، وقد خَلَفَ في منصبه وزيرًا كان من الكبار بحق ، وتعاون معي طوال فترة عمله بالوزارة بإخلاص في حل مشكلات المواطنين ، وبأدب بالاستجابة لحل كل مشكلة نُشِرَتْ في بريد الأهرام تدخل في دائرة اختصاصه ، وخصص موظفًا بمكتبه لتلقى أصول الشكاوى المنشورة ومتابعة حلها ، ولاحقني بالردود والإيضاحات على ما يُنشر بالبريد طوال عهده من آراء وتعليقات على أداء الأجهزة التابعة لوزارته ..

وكثيرًا ما أيقظني من نومي في الثامنة صباحًا بتليفون منه مُعَاتِبًا على رسالة نشرت بالبريد يرى فيها افتئاتًا على وزارته ، أو تتطلب إيضاحًا لا يعرفه كاتب الرسالة .. فأعذر له بأن بريد الأهرام ينشر رسائله على مسئولية كاتبها ، وأرحب بأي رد يطلب نشره على ما جاء فيه .. فلا يدعني لأتمالك نفسي لحظات ، وأنا شبه نائم تقريبًا ، وإنما يشرح لي وجهة نظره ويطلب مني صياغتها في رد ينشر باسمه .. فأسجل نقاط

حديثه على غلاف أى كتاب من الكتب الموضوعة إلى جوار فراشى ،
وأضع الساعة شاكرًا ، ثم أستغرق فى النوم لساعة أو أكثر قبل أن
أنهض لأداء عملى ، وأصوغ النقاط التى أملاها علىّ وأنا أخشى أن
يكون قد فاتنى منها الكثير وأنا شبه نائم ، ثم أنشرها وأنا متوجس من
ذلك .. فلا يكاد « الأهرام » ينزل إلى السوق حتى يتصل بى فى موعده
المفضل (!) ليهتنى على « دقة » صياغتي لردّه وأفكاره .. ثم غادر هذا
الرجل الكبير منصبه الذى لا يدوم لأحد ، ولو كان كذلك لما وصل
إليه .. وجاء ذلك المستول .. فلاحظتُ أنه قد مضت شهور على تعيينه
دون أن أتلقى منه أو من مكتبه أى رد على ما ينشر فى « بريد الأهرام »
ولا أية استجابة لحل أية مشكلة من مشكلات القراء المنشورة بالبريد ،
لا منه ، ولا من مكتبه أو إدارة العلاقات العامة بوزارته ، كما كان الحال
فى عهد سلفه .. وكلها مشكلات حيوية لا تحتمل الانتظار .. وناقشتُ
« مندوب الأهرام » فى تلك الوزارة فى ذلك وأبديتُ له عجبى من عدم
اهتمام ذلك الوزير بالرد على ما يثار حول وزارته ، أو بتقديم أية
استجابة لصرخات المواطنين فى البريد .. فقال لى المندوب : إنه شخص
متجهّم متغطرس ، لا يقابل أحدًا .. ولا يستجيب لمكالمة أحد ، وليس
لديه أى حسّ سياسى يُشعره بأهمية التجاوب مع نبض الرأى العام ،
والرد على تساؤلاته .. ونصحتنى الزميل بأن أتجه إلى وكلاء الوزارة

والمديرين المختصين مباشرة لحل مشكلات القراء ، وتعجبتُ لذلك كثيراً وعملتُ بنصيحة الزميل ، وركزتُ اتصالاتي مع المديرين المسئولين بوزارته لحل مشكلات القراء .

ومضى عامان طويلان على هذا الحال ، ثم نشر أحد أصدقاء بريد الأهرام رسالة يدعو فيها إلى تنظيم حملة تبرعات لمصلحة مشروع خيرى كبير تشرف وزارة هذا الوزير عليه ، ونُشِرت الرسالة ، ففوجئتُ برد من الوزير مرسل إلى مع مندوب يُحيى فيه كاتب الرسالة ويشجّع هذه الحملة .. ونشرتُ الرد ، ونظمنا الحملة، وجمعنا مبلغاً كبيراً من التبرعات لمصلحة هذا المشروع ، واستصدرتُ شيكاً من الإدارة المالية بالأهرام بقيمة المبلغ ، ولم يتبق سوى إرساله إلى السيد الوزير المشرف على المشروع .. وبالرغم من نفورى مما كنتُ قد سمعتُ عنه .. فقد رأيتُ أن « شرف مكانه » يفرض على ألا أرسل إليه الشيك مع مندوب من « بريد الأهرام » : وأن أتوجه لمقابلته وتقديم الشيك إليه ، والحصول على توقيعه على الإيصال الخاص بذلك .. وطلبتُ من الصديق كاتب الرسالة الذى بدأ هذه الحملة - وكان يعرفه شخصياً - تحديد موعد لى معه لأسلمه الشيك .. واتصل بى الصديق بعد نصف ساعة مبهتجاً وأبلغنى أن الوزير قد رحب بمقابلتنا معاً ، وحدد الموعد فى العاشرة من مساء غد فى قاعة ألف ليلة وليلة بفندق هيلتون النيل ،

حيث سيكون الوزير هناك لحضور حفل ساهر تقيمه هيئة تابعة
لوزارته ، وزفَّ إلى الصديق متهللاً البشري السعيدة ، وهى أننا سوف
نجلس إلى مائدة الوزير خلال الحفل .. وعندها أقدم إليه الشيك
و«أستمضيه » على إيصال الاستلام، وأنصرف مشكوراً أو أبقي إذا
أردت !

وترقب الصديق ابتهاجى بهذا الشرف الكبير .. فصدِّم بوجومى
للحظات فى البداية ، ثم فوجئ بانفعالى عليه بعدها .. قائلاً له : إننى
لا أسعد بالسعى إلى كبار المسئولين فى مكاتبهم .. ولم أفكر فى زيارة هذا
الوزير فى مكتبه لتقديم الشيك إلا احتراماً لشرف مكانه ، ولولا ذلك
لأرسلته إليه مع أى موظف بالأهرام كما أفعل مع غيره من المسئولين
عن بعض المشروعات والهيئات الخيرية التى يسهم « بريد الأهرام » فى
تقديم التبرعات إليها .. كما أننى لستُ صديقاً شخصياً له ولم ألتق به
من قبل ، ولا تربطنى به أية صلة سابقة تبرر له أن يدعونى لمقابلته
لأول مرة فى « فرح » أو حفل عام ! وما دام هو لا يحترم أقدار الآخرين
فلا لوم علىَّ إذن إن أرسلتُ الشيك غداً إلى مكتبه مع مندوب من «بريد
الأهرام» .. ومَن لا يحترم الناس لا يحق له أن يعتب عليهم إن حرموه
من هذا الاحترام !

وبهت الصديق لانفعالى وغضبى ، وانتهت المكالمة عند هذا الحد ،
ونفذت ما قلته له ..

وتذكرت أين قرأت لأول مرة هذه العبارة التي أراعى الالتزام بها دائماً في معاملاتي مع الجميع .. كبارهم وصغارهم .. وهى عبارة «شرف المكان» ! فقد قالها الخليفة عمر بن الخطاب حين وَلِيَ الخلافة ، فخطبه رجل قائلاً : يا خليفة رسول الله .. فأجابه : ذاك صاحبكم - يقصد أبا بكر الصديق رضى الله عنه ... فقال له : يا خليفة خليفة رسول الله .. فقال له : ذاك أمر يطول ! فقال له : يا عمر ! فأجابه : لا تبخسنى شرف مكاني ، فإنما أنتم المؤمنون ، وأنا أميركم . وهكذا صكَّ الفاروق عمر عبارة «أمير المؤمنين» لأول مرة في التاريخ ، وهو من هو تواضعاً وبساطة ، وبُعْداً عن المظهرية وغرور السلطة ! وإنما لكل عمل أو مكان أو منصب شرفه الذي ينبغي احترامه واحترام شاغله ، ما احترم هو نفسه واحترم الآخرين ..

ثم مضت بضعة أسابيع وحدث تعديل وزارى ، خرج فيه هذا المسئول من الوزارة .. وبعد أيام قليلة من خروجه كنت مع بعض الأصدقاء فى فندق كبير من فنادق القاهرة ، فاحتجتُ إلى دخول الحمام ، واستأذنت من الصُّحاب وتوجَّهْتُ إليه .. فما إن هممتُ بفتح بابه حتى غادره رجل أشيب الشعر ، محدودب الظهر ، كسير النظرة .. وسار وحيداً فى الممر الطويل ، فخیل إلى أننى قد رأيته قبل ذلك .. ولكن : متى ، وأين رأيته ؟ لا أعرف .. وفكرتُ للنحظات ، ونظرتُ إليه ملياً ،

ثم لمعت الذكرى في رأسى فجأة .. يا إلهى ! إنه سيادة الوزير الخطير المتطرس ، الذى كان حتى أيام قليلة يشمخ بأنفه في وجوه الناس ، ولا يسير إلا وحوله « زفة » من الحراس والتابعين .. فكيف تهذل كتفاه ، واحذوب ظهره ، وبدا عليه كل هذا « الغلب » خلال هذه الأيام القليلة ؟ !

يا إلهى ! أكون للسلطة كل هذا المفعول السحري في نفوس البعض .. ويكون لفقدائها كل هذا الأثر الهدام عليهم ؟

لقد بدا لى الرجل وكأنه قد تقدم في العمر سنوات خلال أيام قليلة ، وكنت قد رأيته قبل هذا اليوم بأسبوع في التليفزيون ممشوق الجسم .. مرفوع الرأس .. تنطق ملامحه بالقوة والسيادة .. فأين ذهب كل ذلك ؟ !

ولماذا يمشى وحيداً كسيراً ، بلا أصحاب ، ولا أتباع ؟ !

ولماذا لم يستعد لمثل هذا اليوم بالتعامل . الإنسانى مع الجميع ، والحرص على مودة الآخرين ، لكى يجد صديقاً ورفيقاً حين يرجع إلى مكتبه المهنى يزاول عمله الذى يستقبل فيه كل من يملك أجر خدماته المهنية ؟ !

فإذا سألتنى : هل شعرت بالشهامة فيه حين رأيته على هذا النحو .. ؟

أجبتك، بلا تردد : لا ورَبَّ الكعبة ! وإنما شعرتُ بالرثاء له ، وبيعض العطف عليه ! لأن مَنْ أتيحت له الفرصة لأن يكون مفيدًا للآخرين وخادمًا للجميع ، فلم ينتهزها بالحق في إقامة العدل ، وإعلاء كلمة الله في أرضه ، وكسب النفوس ، وخدمة الآخرين ، وزيادة رصيده عند ربه وعند الناس ، إنما يستحق الرثاء لا الشماتة ! . وبهذا الإحساس نفسه استقبلته في مكتبي بعد ذلك ببضعة أشهر حين جاءني في أمر من الأمور يتعلق بنشاطه ، فنهضتُ لاستقباله عند باب المكتب مرحبًا ، وأحطته بالحفاوة والاحترام طوال الزيارة ، بالرغم من سابق نفورى من طريقة تعامله مع الآخرين حين كان في غرور السلطة .

ولا عجب في ذلك أيضًا ولا غرابة ؛ لأن مَنْ لا يتعظ بما يراه في الدنيا من أحداث ، لا يتعلم الحكمة ، ولا ينجو كذلك من تقلبات الأيام .

وشكرًا لذلك الصديق الذى أيقظ هذه الذكريات القديمة الراقدة فى أعماقى ، بحواره الممتع معى عن الكبار والصغار فى دنيا البشر !

منوع « الرّقيق »

أسعد أوقاتى حين أتوجه لمشاهدة
مسرحية جادة فى مسرح محترم يخاطب
العقل والوجدان .. ولا يتعامل مع الغرائز !

فأنا عاشق قديم للمسرح ، لكن ظروف
الحياة قد شغلتنى عنه فى السنوات الأخيرة ،
فلم أعد أدخله إلا لما .. وفى أغلب الأحيان
حين أكون خارج مصر .

فإذا تهيأت لقضاء سهرة مسرحية مع عرض جاد ممتع .. فإننى أعبر باب المسرح مبتهجًا كأننى على موعد قريب مع السعادة .. وأحرص قبل دخولي قاعة العرض على الجلوس أو الوقوف للحظات في مقصف المسرح لأشرب فنجانًا من القهوة استعدادًا لسهرة سوف تثرى الروح والوجدان .. ثم أجلس إلى مقعدى فى الصفوف الأمامية أتطلع إلى الستار الأرجوانى الذى يحجب عنا خشبة المسرح بشغف ، وأترقب الدقات التقليدية التى تؤذن بقرب بداية العرض .. وأشعر ببعض الأسف حين أجد بعض المسارح قد استبدلت بها الآن رئين جرس مزعج .. ثم تخفت الأضواء فى القاعة وتنساب الموسيقى التصويرية ، فأتبّل خاشعًا وأتّهى للاستغراق فى العالم السحري الذى سأدخله .. وحين تنتهى المسرحية أفرغ انفعالاتى المكبوتة فى تحية فنائى العرض .. بغض النظر عما إذا كان قد أعجبنى أو لم أقتنع به ، لأننى أشفق على من يتطلع إلى تقدير المشاهدين لجهدهم فيخذله من يتوقع تقديرهم له أو ينصرفوا عنه فى فتور ، وهكذا فإننى أصفق بحرارة للجميع ثم أغادر المسرح مشحونًا بانفعالات شتى وذكريات قديمة !

نعم .. ذكريات قديمة ..

فلقد بدأت حياتى « الأدبية » مؤلفًا مسرحيًا صغيرًا فى سن الخامسة عشرة ... لكننى تعرضت لـ « خيانة ثقافية » قضت - للأسف - على آمالى المسرحية !

فلقد ألفت مسرحية فكاهية من فصل واحد ليقدّمها فريق التمثيل بمدرستي الثانوية في حفل ختام العام الدراسي ، وأشرفت على بروفاتها بالفعل ، واصطدمت في سن مبكرة بمشكلة الخروج على النص ، واستشيط غضبًا حين لاحظت أن صديقي الذي اخترته لأداء دور البطولة في مسرحيتي يضيف إلى دوره كلامًا لم أكتبه بدعوى أنه سيفجر الضحك لدى الجمهور ، وحذرته بشدة من أن يفعل ذلك خلال الحفل وإلا قاطعته كصديق ، وتوقفت عن « التعاون الفني » معه في المستقبل كمؤلف ! ووعدني الصديق باحترام التقاليد العريقة احترامًا للمسرح وحفاظًا على صداقتي ، غير أنني مرضت فجأة في ذلك الحين مرضًا شديدًا ألزمني الفراش لمدة شهر كامل وأضاع عليّ فرصة مشاهدة مسرحيتي الأولى ، كما حرمني أيضًا من دخول امتحان الدور الأول للسنة الأولى الثانوية .. فأما الامتحان فلقد عرضت فرصته الضائعة بدخول امتحان الدور الثاني في كل المواد ، والنجاح فيه . وأما فرصة ميلاد عملي الفني الأول ، وترقب استقبال الجمهور له وتفاعلهم معه ، وسماع كلمات الإعجاب والإشادة به .. فلقد فاتتني للأبد ولم أستطع تعويضها بعد ذلك قط ، لكنني رحّمتُ أنسقط أخبار «المسرحية » من أصدقائي وزملائي الذين يعودونني في مرضى ، ولاحظتُ بقلق أنهم لا يشيرون بكلمة للمسرحية في حديثهم معي ،

وفهمتُ من ذلك أنها قد فشلت فشلاً ذريعاً ، وأنهم يتعمدون تجاهل الأمر إشفاقاً على من مرارة الفشل . ثم عرفتُ سر الصمت والتجاهل حين اجتزتُ المحنة المرضية ، وبدأت فترة النقاهة .. فقد باح لي صديق منهم بما حرص الجميع على كتمانها عني خلال مرضي ، وهو أن الصديق بطل المسرحية قد خانني وقدم المسرحية « للجمهور » باسمه هو كمؤلف لها وليس كبطلٍ فقط لأحداثها ، وأنه كتب في إعلاناتها أنها من تأليف وإخراج وتمثيل : فلان ! فكانت هذه هي أول « خيانة ثقافية » في حياتي ، وتألّمتُ لها بعض الوقت ، غير أنني لم أتوقف أمامها طويلاً ، وإنما قلتُ لنفسى كما اعتدتُ دائماً في المواقف المماثلة : إن ما حدث ربما كان خيراً أرادته لي الله سبحانه وتعالى .. قد تخفّى عني الآن حكمته ، ولكنها سوف تتضح لي بالتأكيد بعد حين ..

والآن وبعد هذه السنوات الطويلة فإننى أدرك حكمة هذا الخير الذى خفى عني وقتها وتألّمتُ له في حينه .. إذ ربما لو كنتُ قد جربت نشوة الإعجاب وتصفيق الجمهور بما كتبتُ لصدقتُ وقتها بالفعل أنني مؤلف مسرحى ، ولأهدرت طاقتي وعمري في طريق لم تهينى له العناية الإلهية .. ولعانيتُ مرارة الفشل والإحباط حين أطرق باباً لا يستجيب لطرقاتي ..

فالحق أنني لم أكن « موهوباً » في التأليف المسرحى بأى شكل من

الأشكال ، ولم يكن ما كتبتُه في هذه المسرحية الهزلية سوى صدَى
لإعجابى المبكر بمسرحيات توفيق الحكيم التى كنت أقرأها وقتها
بشغف ، وحاولتُ تقليدها بغير نجاح يُذكر في هذه المسرحية ،
فاستسلمتُ لما أرادته لى الحكمة الإلهية بتعرضى لهذه الخيانة المسرحية
.. وكففتُ عن تكرار المحاولة بعد ذلك أبداً ، وعوضتُ حرمانى
المسرحى بمتابعة الحركة المسرحية باهتمام ، خصوصاً حين انتقلتُ من
مدينتى بالأقاليم للدراسة بجامعة القاهرة ، وعرفتُ الطريق إلى المسرح
القومى بالأزبكية .. وذهلتُ لما أراه على خشبته من فكر راق وأداء
مبدع لفنانين عظام ، توارى إلى جانبه ما توهمتُ ذات يوم أنه عمل
مسرحى يصلح للعرض على خشبة المسرح ! وأدمنتُ التردد على
المسرح القومى ، ولاحظتُ أن دمعى يسحّ بلا حياء وأنا أشاهد الفنان
«فاخر محمد فاخر» وهو يؤدي مشهد الختام فى مسرحية «مجنون ليلى»
لأمير الشعراء أحمد شوقى ، خصوصاً حين يقول وهو جاثٍ يبكى على
قبر محبوبته :

ولقد أقول لمن يُبشّرُنّى بالخلد : ما أنا داخلٌ وحدى
لو أنّ ليلى فى النعيلِ معى أو فى الجحيم .. تساوىا عندي !
ثم يدخل فى دور الاحتضار ، وتختلط عليه الرؤى ، ويسمع صوت
ليلى يناديه من قبرها ، فيشهق شهقة مؤلمة ويقول :

قيس .. ليلي .. رنة في أذنى رددت : « قيس و ليلي » الفلوات
نحن في الدنيا وإن لم تَرْنَا لم تَمُتْ ليلي ولا المجنون مات !

ثم يسلم الروح وتسدل الستار .. وكنت منذ أن بدأ هذا المشهد قد
فقدت السيطرة على دموعي ، وشعرت بالحنج من نفسي ، فحاولت
تخفيفها من غير أن ألفت انتباه من حولي ، ثم لاحت مني نظرة إلى من
يجلس بجواري ، وكان رجلاً فوق الستين من عمره ، فإذا بي أراه يبكي
في صمت مؤثر ، وتشجعت بذلك .. وتلفت أكثر فإذا بي أرى الدموع
في عيون معظم المتفرجين ، خصوصاً من السيدات ، فتخلصت من
حرجي ، ونفست عن مشاعري المكبوتة بارتياح . وحين انفتح الستار
مرة أخرى عن « فاخر فاخر » ليرد تحية الجمهور ، كانت تحيتهم له
صراخاً وولولة أكثر منها تصفيقاً !

ومن عجب أنني وجدت نفسي في موقف مماثل بعد سنوات طويلة
من هذه الذكرى ، وأنا أشاهد منذ ثلاثة أعوام مسرحية فيكتور هوجو
الرائعة « البؤساء » في أحد مسارح ال « وست إند » بلندن .. فلقد
تندت عيناى بالدمع في مشهد الحب المؤثر بين الفتى الأول والفتاة
الجميلة اليتيمة « كوزيت » ، ورنوت بحذر إلى صديقي الذي يحضر معي
المسرحية واطمانت حين وجدته مستغرقاً في المشاهدة ولا يلحظني ..

ثم سمعتُ نشيجًا خافتًا ، وتلفتُ ناحيته فإذا بسيدة شابة تجلس في
الصف الأمامي تبكى بحرقة ، وزوجها يحتضنها في عطف ويعطيها
منديلًا ورقيًا لتجفيف دمعها !

فإذا كان « مستقبلي » المسرحى قد ضاع إلى الأبد بسرقة أولى
مسرحتى ، فإن متعتى بالمسرح الجاد الراقى وانفعالى إلى درجة التأثير
الوجدانى الشديد به لم يضيعا منى .. ولم يستطع أحد أن يحرمنى منهما ،
ولقد شكرتُ الله كثيرًا فيما بعد أن حرمنى موهبة التأليف المسرحى
حين اقتربتُ من الكاتب المسرحى الراحل محمود دياب - رحمه الله -
وكان من أعظم كتاب المسرح الموهوبين فى الستينيات والسبعينيات ،
وعايشتُ بعض عذاباتهِ وإحباطاتهِ ، حتى مات قبل أن يبلغ الخمسين
حسيرًا مهمومًا بهوم وطنه ، وممرورًا بالإحساس بالتجاهل وعدم
الاعتبار ، ووجدتُ بديلاً عن الأحلام المسرحية متعتى فى مشاهدة
المسرح ، ومتابعة خطوات بعض أصدقائى الذين دخلوا عالمه ، سواء
بالتأليف أو الإخراج أو التمثيل .

كما وجدتُ نفسى ذات مرة أمارس من حيث لا أحتسب دور
«المخرج» مع صديقى لى جاء من مدينتنا فى الستينيات للالتحاق بفرق
التليفزيون المسرحية ، وأقام ضيفًا على فى شقتى الصغيرة بجوار كوبرى

الجامعة ، وحددت له لجنة الامتحان بفرق التليفزيون موعداً يؤدي فيه أمامها ثلاثة مشاهد مسرحية متنوعة لاختبار قدراته التمثيلية ، لابد أن يكون أحدها على الأقل بالعربية الفصحى .. واستشارني صديقي فيما يختاره من مشاهد للامتحان .. فاخترتُ له من قراءاتى المسرحية مشهد الختام فى مسرحية « مجنون ليلي » لشوقي ، ومشهد حفار القبور من مسرحية شكسبير الخالدة « هاملت » ، ومشهداً من مسرحية « الست هدى » الفكاهية لأمير الشعراء .

ولم أكتفِ بالترشيح والاختيار فقط ، وإنما توليتُ أيضاً تحفيظه هذه المشاهد ، بل و « إخراجها » أيضاً .. وكانت مشكلتنا وقتها هى البروفات ! فلقد كنا نبدوها عقب عودتى من عملى بالأهرام بعد منتصف الليل ، وكان صديقى جمهورى الصوت بشكل لافت ، فما إن يندمج فى الأداء حتى يفلت منه الزمام ويصيح بأعلى صوته بحوار المشهد ، فلا تمضى لحظات حتى أسمع طرْقاً على الباب وأجد بعض الجيران الشاكين من هذا الإزعاج !

وحرصاً على العلاقات الودية مع جيرانى فلقد نقلنا ساحة البروفات إلى كوبرى الجامعة القريب .. فكان منظرنا وأنا أقف أمامه ممسكاً فى يدي بالنصوص المسرحية ، وهو « يجعر » بأعلى صوت فى خلاء الكوبرى مردداً الحوار بعد الثانية صباحاً ، يستوقف العابرين

بسياراتهم ، وقد يطلق أحدهم ضحكة عالية أو كلمة ساخرة .. من هذين المهووسين !

أما ما حدث في إحدى هذه الليالي فإننى لم أنسه قط بعد ذلك ، فلقد اندمج صديقى فى الأداء ، فجلجل صوته مبدداً هدوء المكان ، فإذا بشرطى شاب يقترب منا متزعجاً ويسألنا فى ارتياب عن سبب وقوفنا على الكوبرى فى الثالثة صباحاً ، وسبب «تشاجرنا» معاً وتبادلنا الصياح على هذا النحو !

وشرحنا له السبب وأطلعناه على بطاقة الامتحان الخاصة بصديقى الهاوى ، لكنه لم يقتنع بشيء من هذه الترهات وأصر إصراراً شديداً على شيئين .. هما : أن «الصلح خير» ولا داعى للشجار بيتنا على هذا النحو .. والثانى هو أنه ممنوع «الزعيق» بعد منتصف الليل مهما كانت الأسباب .. ولسوف يقتادنا صباغرين إلى قسم الشرطة إن لم نمثل لذلك .. وانتهى الموقف بامثالنا بالطبع لرغبته وانسحابنا من الكوبرى !

أما صديقى الآخر فلقد كانت رقة مشاعره سبباً فى تحطيم أحلامه المسرحية على نحو مختلف ! .. فلقد كان طالباً بكلية الحقوق وعضواً بفريق التمثيل ، وكان مخرج الفرقة وممثلها الأول طالباً «مزمناً» وفناناً

موهوبًا بحق ، أمضى فى دراسة الحقوق عشر سنوات ، حرص خلالها على التقدم كل عام لمسابقة التمثيل المسرحى للجامعات بمسرحية «لويس الحادى عشر» .

وأصر طوال السنوات التى أمضاها صديقى هذا طالبًا بكلية وعضوًا بفريق التمثيل ، على ألا يعطيه سوى دور حارس شبه صامت فى المسرحية ، واعدًا إياه كل عام بأنه سوف يعطيه دورًا أكبر فى العام التالى .. إلى أن جاءت الليلة الحاسمة فى حياة صديقى المسرحية ، وقدم فريق التمثيل بكلية الحقوق مسرحيته المفضلة على خشبة مسرح الأزبكية أمام لجنة التحكيم التى تقدر لكل فريق درجة من مائة درجة ، ومضت أحداث المسرحية بسلام إلى أن جاء مشهد الختام ، وكانت خطة الحركة المسرحية فيه تقضى بأن يلقي بطل المسرحية الطالب «المزمن» مونولوجًا مؤثرًا وهو فى فراش الموت ومن حوله الأمير الشاب وأربعة من الحراس ، أحدهم صديقى إياه، فما أن يلفظ البطل أنفاسه الأخيرة حتى يجثو الأمير على ركبتيه باكياً ويقول : دعونى وحدى!.. فينسحب الحراس الأربعة بهدوء ويخلون المسرح إلا من جثمان الملك الراحل فوق فراشه والأمير الحزين ، فيلقى الأمير رثاءه المؤثر للملك ثم ينهض مودعًا جثمانه ببطء إلى خارج المسرح ، ويسدل الستار !

وفي تلك الليلة أدى الطالب المزمّن دوره بإتقان مؤثر ، وبكى الأمير
بدموع حقيقية حتى صاح في ألم : دعونى وحدى ! فبدأ الحراس
ينسحبون ببطء واحدًا وراء الآخر.. إلا حارسًا واحدًا هو صديقى
هذا ! فلقد غاب عن الوجود في غمرة تأثره بالمشهد الحزين ، ونسى
الحركة المسرحية وسالت دموعه بحرارة ، وأصبح كل همّه هو أن يسمع
ماذا سيقول الأمير في رثائه للملك .. إلى أن أفاق من ذهوله على صوت
الملك « الراحل » يهمس له من فراشه وهو يتميز غيظًا : « اخرج بره يا
حيوان ! »

وتنبه الحارس للموقف .. لكنه بدلاً من أن ينسحب بهدوء تخيل ما
سوف يناله من غضب المخرج بعد انتهاء المسرحية .. فتجمّد في موقعه
لا يدرى ماذا يفعل للحظات أخرى ..

فإذا بصوت المخرج يهمس مرة أخرى بغضب أشد : « خربت بيتى
.. وضيعت على عشرين درجة .. اخرج يا حيوان ! فتخلص من
جهوده أخيرًا وهرب خارجًا ، وبالتالي تأثر جلال المشهد بهروله
المضطربة .. وضحك أعضاء لجنة التحكيم !

فما أن انتهى المشهد ورد البطل والأمير تحية الجمهور ، حتى هرب
البطل إلى الكواليس وهو يزأر كالوحش : « هوه فين ؟ هوه فين ؟ »

لكن هيهات أن يجده بعد أن حدث ما حدث .. فلقد أدرك صديقي
ما ينتظره عقب نهاية العرض ، فهرول بملابسه المسرحية إلى بيته ،
وكانت هذه اللحظة هي مشهد الختام بالنسبة لأحلامه المسرحية .. بل
ولهوايته للمسرح أيضاً ! فلم يعد يقترب من خشبته لا ممثلاً ولا متفرجاً
بعد ذلك قط !

ألم أقل لك : إننى أسعد حالاً من غيرى ممن تحطمت أحلامهم
المسرحية مثلى لسبب أو لآخر ؟ !

سأقول «حكمة»

نعم .. سأقول لك «حكمة» ، تستفيد بها في
حياتك إذا أردت كما استفدت أنا بها كثيرا ،
وحاولت جاهدا أن أعمل بها في حياتي ..
لكني لست «مبدعها» ، ولا أزعم لنفسى «
الحكمة» ، أو الفلسفة ، وإنما أنقلها إليك ممن
تعلمتها منه ، وناقل الحكمة ليس بحكيم ، كما
أن ناقل الكفر ليس بكافر !

أما « مبدع » هذه الحكمة الغالية فهو رجل بسيط من أبناء البلد ، يرتدى الجلباب البلدى النظيف والصدىرى المزركش تحته ، ويلف رأسه « بثلاثة » جميلة ناصعة البياض ، ويرتدى ساعة ذهبية فى معصمه ، ويشى مظهره كله بذوق أبناء البلد الأصلاء وظرفهم ، وذكائهم الفطرى الذى يمكنهم من أن « يفهموها » وهى « طائرة » محلقة فى الجو وقبل أن تحط على الأرض !

أما « الساحة » التى أطلق فيها هذه « الحكمة » فقد كانت صالة مسرح محمد فريد فى فترة الستينيات ، وكان المسرح أيامها يعرض مسرحية جديدة لمؤلف جديد لم يكتب قبلها ، ولم يكتب بعدها ، لأنه لم يكن مؤهلاً من الأصل للكتابة المسرحية ولا موهوباً فيها ، لكن العهد وقتها كان عهد الاشتراكية الذى تسيطر فيه الدولة على كل مؤسسات الفكر والفن والثقافة ، ويتولى مراكز القيادة فى معظمها قيادات من أهل الفكر الماركسى الذين خرجوا من السجون والمعتقلات وتحالفوا مع النظام ، وشغلوا مراكز قيادية فى الحياة الأدبية والفنية فى البلاد باعتبارهم من « أهل الثقة » ، بغض النظر عن الخبرة . وكان مؤلف هذه المسرحية اليتيمة مناضلاً ماركسياً سابقاً ، قضى عدة سنوات فى المعتقل ، وخرج من السجن فعين فى إحدى المؤسسات التى تسيطر على الحركة الفنية ، وبحكم موقعه الجديد أصبح صاحب دور ونفوذ فى عالم

المسرح ، فتطلع لأن يكتب مسرحية يخلد بها اسمه في تاريخ الفن ، واستعان بثقافته العريضة على ذلك ، ولم يتوقف لحظة أمام نفسه ليسألها: هل يملك أصلاً الموهبة التى تؤهله لذلك أم لا ؟ والنفس بطبيعتها قد تطمح أحياناً لنيل ما لا ترشحه له قدراتها، وإغراء السلطة كالحمر يدير الرؤوس ويعمى الأبصار عن القدرات الحقيقية للإنسان فى كثير من الأحيان . ولقد كانت كل الفرص متاحة أمامه ، فلماذا لا يكتب مسرحية تمثل فوق خشبة المسرح وتحمل لافتاتها اسمه ، وتُعقد الندوات الأدبية لمناقشة مستواها الرائع وفكرها العميق؟ وبم يزيد عليه توفيق الحكيم الذى تتنافس فرق الدولة المسرحية على تقديم مسرحياته ؟

وهكذا كتب الرجل مسرحيته أو « درته اليتيمة » كما يقول نقاد الأدب عن العمل الأدبى الواحد لأحد المفكرين ، ولم يكن ينوى بالطبع أن تكون هذه المسرحية درته اليتيمة حين كتبها ، لكن تطورات القصة التى سأرويها لك فيما بعد هى التى قضت عليها بذلك .

فلقد جاءت المسرحية عملاً ذهنيًا جافاً لا تتوافر فيه معظم قواعد الدراما المتعارف عليها .. ولا تعدو أن تكون مناقشات طويلة متصلة حول قضايا فكرية عويصة كقضية « النشوء والارتقاء » وأصل الكون ومصيره إلخ .. كما كانت طويلة طويلاً غير مألوف بالنسبة للمسرح .

لكن ماذا يهم وأعضاء لجنة القراءة بالمرح الذين سيقرون قبولها معظمهم من الرفاق المتعاطفين مع المؤلف من باب الالتزام العقائدى . وليس من باب الإعجاب بالموهبة ؟ وماذا يعرقل المؤلف ومستولو مؤسسة المسرح الذين سيعتمدون ميزانية إنتاج المسرحية من الرفاق القدامى ، وسوف يفعلون ذلك تكريماً لشخصه وليس إعجاباً بمسرحيته ؟!

وكان ما توقعه المؤلف بالفعل ، فشقت المسرحية طريقها فى لجان مؤسسة المسرح شائخة « كالعروس » .. تدعمها تقارير اللجان المختصة التى تشيد بعمقها وارتفاع مستواها .. وتصدى لإخراجها مخرج صديق لم يكن من أهل الفكر الماركسى ، لكنه يريد أن يعمل ويفرغ فنه على خشبة المسرح ، ويستفيد من دعم الرفاق لهذه المسرحية « الأعجوبة » فى نظرهم ، وقرأ النص فوجده جافاً مملاً ، وتخير .. هل يرفضها فيمضى بضع سنوات أخرى بلا عمل ، ويستشير عليه عداء الرفاق واتهاماتهم التقليدية له ولأمثاله بالرجعية الفكرية ومعاداة حركة التاريخ .. إلخ؟ أم يقبلها ويجتهد لأن يخفف من جفافها بخبرته وفنه وبعناصر الفن المسرحى الأخرى ؟

وانتهى إلى رأى الثانى ، وقرر أن يسند أدوارها لعدد من نجوم الكوميديا المشاهير وقتها لكى يستفيد بشعبيتهم لدى الجمهور على

مضمون المسرحية الجاف . ونجح في إقناعهم بذلك فعلاً ، وبدأ في إخراجها .. وراقبته عن قرب خلال التجارب المسرحية ، وأشفقْتُ عليه كثيرًا مما يعانیه من ضغوط شديدة من كل الاتجاهات .. من أبطال المسرحية الذين يشكون له من عقم الحوار .. ومن المؤلف الذى لا يقبل تغيير كلمة واحدة من حوارهِ أو اختصار بضعة سطور منه .. كأنه شكسبير العظيم لا يجوز المساس بكلماته الشعرية البليغة !

واضطر المخرج لتقديم النص الكامل للمسرحية كما وضعه المؤلف ، رغم اعتراضه على طولهِ ، وجاءت البروفة الأخيرة التى تسبق ليلة العرض الأولى للمسرحية أو « البروفة جنرال » كما يقول أهل المسرح ، فبدأ العرض فى التاسعة مساءً وانتهى فى الخامسة والنصف صباحًا !

وتجدد الخلاف مرة أخرى بين المؤلف والمخرج الذى أصر على اختصار ثلث حوار المسرحية ، وإلا فإنه سوف ينتحر الآن وعلى الفور ! وتكتل « النقاد » - الذين شهدوا البروفة الطويلة حتى تساقطوا صرعى الإجهاد من ثقل وطأتها - على المؤلف ليقنعوه بالاستجابة لرغبة المخرج لصالح العمل والجمهور ، فسلم بذلك مضطراً وانصرف غاضباً ، وواصل صديقى المخرج عمله فى هذه المسرحية القاتلة بلا نوم حتى موعد العرض فى الليلة التالية .

واجتذبت المسرحية في ليلتها الأولى عددًا كبيرًا من الجمهور جاءوا إلى المسرح متوقعين أن يشهدوا مسرحية ضاحكة ممتعة ، اعتمادًا على أسماء أبطالها المشاهير ، فإذا بهم يجدون أنفسهم أمام مشهد واحد لا يتغير لمدة خمس ساعات ، ومناقشات مملة عن نشأة الحياة .. وأصل الكون .. وغير ذلك من القضايا الفلسفية التي لا يحتملها الجمهور العادى ، ولا يملك أن يتصدى لها إلا مؤلف عظيم الموهبة يصوغها في قالب من الأحداث الدرامية الممتعة ، وليس في حوارات طويلة بين أشخاص يتناقشون وكأنهم في ندوة مدرسية !

وتكشفت الحقيقة عارية .. وهى أنه لا متعة ولا فن في هذه المسرحية ، فتراجع الإقبال الجماهيرى عليها سريعًا برغم أسماء أبطالها المحبوبين . أما في صفحات النقد المسرحى التى كان يشرف على معظمها رفاق المؤلف فقد كان الحال مختلفًا إلى حد كبير ، وتوالى المقالات التى تشيد بالمسرحية .. و « فن » كاتبها المثقف ، وعبقريته الدرامية إلخ .. واستمر عرض المسرحية رغم تراجع الإقبال عليها . ولو كانت لمؤلف من غير « الأنصار » لصدر قرار على الفور بإيقافها .

وكنْتُ أتردد عليها كثيرًا في ذلك الوقت لألتقى بمخرجها الصديق ، وأشاهد بعض فصولها من حين لآخر ، إلى أن جاءت ليلة كان صديقى

المخرج فيها مكتتبًا أشد الاكثاب بما يشنه عليه المؤلف من هجوم في الصحف والجلسات الخاصة مدعيًا أنه شوه المسرحية باختصارها ، وأنه لم يرق بإخراجه لها إلى مستواها .. إلخ ..

وتحدثنا عن ذلك طويلاً ، وحاولتُ قدر جهدى استخفيف عنه بأنه لا يصح إلا الصحيح في النهاية ، وأنه حتى النقاد الذين يتعاطون «عقائديًا» مع المؤلف في خلافه معه يعرفون في قرارة أنفسهم أن رفيقهم عاطل من الموهبة المسرحية ، وأنه لولا إخراجه لما توافر فيها الحد الأدنى المقبول من الشكل المسرحي .

ثم دخلنا صالة المسرح لنجلس بين الجمهور القليل الذى يشاهدها ونُروِّح عن أنفسنا بعض الوقت ، فرأيتُ في تلك الليلة ذلك الرجل من أبناء البلد الذى حدثتُك عنه في بداية المقال ، وكانت رؤيتنا له ومتابعتنا ما فعل مُفَرِّجًا لنا من الكرب الثقيل من حيث لا نحتسب ، فلقد كانت لمسرحية تحكى عن نشأة الكون وخلق الإنسان الأول، ثم المرأة الأولى، ثم مَنْ تكاثر بعدهما من الأبناء والأحفاد ، ولأنه « الإنسان الأول» قد كان عليه أن يعلم الأبناء حقائق الحياة والممارسات الأولى لكل الأشياء ، ويمهد لكل « حقيقة » جديدة يسوقها إليهم بصيغة درامية عالية هاتفاً : سأقول حكمة!

وينصت الأبناء والأحفاد ويرهفون السمع، فيقول :

- يحتاج كل رجل إلى المرأة لكي يسكن إليها وينجب منها الأبناء -

ثم تتابع أحداث المسرحية بعد ذلك - أو قل حواراتها حيث لا أحداث

في الحقيقة - فيهدف الإنسان الأول مرة أخرى نفس الهتاف : سأقول

حكمة ، ثم يقول :

- ترضع المرأة وليدها لمدة عامين قبل فطامه !

وهكذا طوال المسرحية المملة !

ويبدو أن ذلك الرجل من أبناء البلد كان يمر بالمصادفة أمام مسرح

محمد فريد تلك الليلة، فرأى صور نجوم الكوميديا المشاهير الذين

يؤدون أدوارها وقرأ أسماءهم، فاشترى لنفسه تذكرة في الصفوف

الأولى، ودخل إلى قاعة المسرح مُنمِّيًا النفس بسهرة بهيجة ضاحكة مع

هؤلاء النجوم المحبوبين ، وبدأ عرض المسرحية وتوالت مشاهدتها

وحواراتها فلم يضحك ، ولم يجد فيها ما يُبهجه أو يُمتعته أو يثير اهتمامه،

لكنه لم يتعجل الأحداث، وواصل المشاهدة في صبر آمل أن تزداد

الأحداث بعد ذلك سخونة أو سرعة ، وتحدث المواقف الكوميدية التي

تثير الضحك وتشد الانتباه ، لكن المناقشات السمجة البطيئة تواصلت

إلى ما لا نهاية حتى مضت ساعة بغير أن يتسم ابتسامة واحدة ، أو



يستمتع بشيء مما يراه ، فحسم أمره في لحظة خاطفة ، ونظر في ساعته الذهبية .. ثم نهض من مقعده وخرج من الصف إلى الردهة التي تتوسط المسرح بين المقاعد .. وصاح بنفس لهجة بطل المسرحية ووجهه إلى خشبة المسرح وبأعلى صوت ممكن : سأقول حكمة !

فالتفتت إليه أنظار المشاهدين في دهشة ، وتوقف الممثلون عن التمثيل والتفتوا له متعجبين ، فكرر صيحته مرة أخرى بنفس الطريقة المسرحية:

- سأقول حكمة !

ثم قال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته !

واستدار ناحية باب الخروج وغادر قاعة المسرح بخطوات عسكرية نشيطة معلناً رأيه في المسرحية والهرء الذي تقدمه بأبلغ وأغرب وأطرف تعبير ممكن عن الرأي !

ومرت لحظة سكون لم يكن يتردد خلالها بالمسرح سوى وقع خطواته العسكرية على الأرض .. ثم أدرك الجميع الموقف فانفجروا في الضحك الصاخب ، وانفجر الممثلون فوق الخشبة ضاحكين وفقدوا اندماجهم المسرحي لعدة دقائق .. ولم يتمالك بعضهم نفسه من أن يدق على كف زميله ضاحكاً بانفعال شديد ، بل ومتشفيًا أيضًا في مؤلف

المسرحية ، وعباقره مؤسسة المسرح الذين يصرون على استمرار عرضها رغم الفشل الواضح .. وفي كل الأدعياء والمحاسيب من أمثالهم !

أما أنا وصديقي المخرج فلقد أجهدنا كثرة الضحك والانفعال العنيف بهذا الموقف الغريب الممتع ، حتى رحنا نلتقط أنفاسنا بعدها بصعوبة . وحين تمالكثُ نفسي بعد ذلك دفعتُ صديقي المخرج في كتفه وأنا أنهض من مقعدي قائلاً له : ماذا تنتظر ؟ .. هيا بنا نلحق بهذا « الناقد » الصادق مع نفسه - والذي لا يغير ضميره مجاملة لأحد - لتعرف عليه ! .. وهرولنا معاً خارج المسرح ، لكننا لم نلحق به للأسف ولم نجده .. فلقد ذاب في زحام المارة بشارع محمد فريد تاركاً وراءه ردّاً أبلغ من كل رد على كل من يدعى لنفسه ما ليس فيها من قدرة وموهبة ، وكم تمنيتُ لو كنتُ قد لحقتُ به وتعرفتُ عليه لأبلغه بإعجابي بذكائه الفطري ، وخفة ظله التلقائية وعبقريته البديهيّة في التعبير عن الرأى بغير الحاجة إلى كل مصطلحات المثقفين .. وكلماتهم العويصة ! فلقد كان « صاحب رأى » وليس مجرد متفرج تافه الشأن !

ولقد كان يستطيع أن يغادر قاعة المسرح في هدوء وينجو بنفسه من سجنها الثقيل عليه بغير أن يشعر به أحد ، لكنه لم يشأ أن يفعل ذلك وأراد أن يقول « كلمته » في هذه المسرحية الفاشلة السمجة قبل أن يغادرها ، كما أنه رجل عف اللسان بغير شك ، فقد قال رأيه عملياً في

المسرحية بغير أن ينطق بكلمة نائية واحدة أو يخرج عن حدود الأدب في التعبير ، وإنما استلهم من سماجة المسرحية نفسها ببديته السريعة «الشكل الدرامى» الذى يغادر به قاعة المسرح ويقول رأيه ، فأعلن عن «الحكمة» التى يريد أن يقولها، ثم نطقها فإذا بها تحية الوداع للحاضرين وللمسرحية التى لا تعجبه .. وللخزعات التى تتردد فيها.

فكأنها قد عمل من حيث لا يدري بتلك العبارة الشهيرة التى يرددها أهل الرأى الآخر فى مواقف الاختيار الصعبة ، ويمهدون بها لمواقفهم التى قد تجر عليهم المتاعب .. وهى : قل كلمتك وامش !

أى قل رأيك كما يمليه عليك ضميرك وكما تؤمن به .. ولا تنتظر ثناء من أحد .. ولا تأبه لعقاب أو ضرر ينالك بسببه !

ولقد ذكرنى هذا الرجل بعبارة شاعر الهند وفيلسوفها طاغور من أن الزمن هو أشرف النقاد ، لأنه الناقد الوحيد الذى يُعلى الحق ويسقط الباطل ولا ينحاز لأحد!

وقد كان هذا الرجل واحداً من «أشرف النقاد» فى تاريخ الحركة المسرحية فى بلادنا .. وأخفهم ظلاً .. وأكثرهم صدقاً مع النفس وذكاء فى التعبير عن الرأى .. فلقد قال لنا بأبلغ عبارة إنه لا يصح فى النهاية

إلا الصحيح ، مهما حاول بعضنا أن يُلبس الباطل ثوب الحق .. أو يدعى لنفسه ما ليس لها من قدرة أو موهبة .. أو يقحم نفسه على عالم ليس من أهله اعتمادًا على نفوذه أو نفوذ أنصاره ، وأنه حتى لو استطاع أن يفعل ذلك وهُيَّء له أنه قد نجح فيه ، فلن يمضى وقت طويل إلا وينكشف الزيف .. ويذهب الزبد جفاء .. ولا يبقى في الأرض إلا ما ينفع الناس .

« ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه » في النهاية كما يقول لنا رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

فهل أدركتَ يا صديقي مغزى « الحكمة » العميقة التي أردتُ أن أنقلها إليك عن هذا الرجل ؟

هدوء من فضلك

في أحد شوارع مدينة صغيرة وهادئة في
الوسط الغربى من أمريكا ، شاهدتُ هذا
المنظر : رجل مسن - لعله في الثمانين من
عمره - يجلس على دَرَجٍ مدخل العمارة
الصغيرة التى يقيم بها ، ومن حوله عدد من
الحمام العجوز يلتقط الحب الذى يلقيه إليه
ويشرب من إناء الماء الذى يضعه له ، وهو
يرقب الحمام حينًا ، ويحملك في الخلاء حينًا
آخر ، وسكينة الدنيا كلها تحيط به وبالمكان
كله .

وعرفتُ من قريبي الأستاذ الجامعي الشاب الذي كنت أزوره في هذه المدينة الأمريكية الهادئة ، أنه يرى هذا الرجل في هذا الموعد نفسه كل يوم منذ بضع سنوات .

فراقبته للحظات وتأملتُ دماء الصحة والعافية وعلامات « روقان البال » البادية عليه ، وقدرتُ أنه رجل يعيش تلك المرحلة من العمر التي يسمونها في الغرب « السن المُسَكَّرَة » أو « Sugar Age » بعد أن أدى دوره في الحياة وشبع من العمل الشاق ، وآن له أن يقضى حياته في سلام بلا لهات ولا جرى وراء شيء ، ويساعده هدوء المكان الذي يقيم فيه وخلوه من ضجيج المواصلات والكاسيتات والميكروفونات على الاستمتاع بحياته وأوقاته . نظرتُ إليه مرة أخرى وتمتمتُ هامساً :
- يا بَخْتُهُ !

فمنذ سنوات وأنا أحلم حلمًا مستحيلاً .. هو أن أقضى أيامي في مكان هادئ أستطيع أن أقرأ وأكتب فيه بغير أن يفزعني صوت صاخب ، أو يقطع عليَّ أفكارى نعيق ميكروفون أو كاسيت أو كلاكس سيارة أو طنين زحام البشر .

ومنذ سنوات خُيِّلَ إليَّ أنني قد حققتُ هذا الحلم وأصبحتُ لى « صومعة » أهرب إليها من ضجيج الحياة ، فأكتب فيها « بريد الجمعة » وقصصى القصيرة ومقالاتى الأدبية التى أصدرها فيما بعد فى كتيبى ،

وتحقق ذلك حين تسلمتُ شقة في الهرم حصلتُ عليها لابنى ، ورأيتُ
أن أستفيد منها إلى أن يحتاج إليها في المستقبل .. فأثتتها بأثاث بسيط ،
لكنه لا يخلو من لمسة فن أو جمال ، ونقلتُ إليها فائض كتبى وأوراقى
اتى يضيق بها مسكنى ، وأعددتُ لنفسى فيها مكتبًا كبيرًا ، وزينتُ
جدران الشقة بلوحات مقلدة وأصلية ، وعلقتُ عليها صورة زيتية
لأديبى المفضل نجيب محفوظ ، وأخرى لأمير القصة القصيرة الروسى
أنطون تشيكوف ، وزودت مطبخها بماكينة لصنع القهوة وبراد كهربائى
لصنع الشاى ، وهما عدتى وزادى عند الكتابة .. وافتتحتُ « الواحة
الجديدة » عازمًا أن أقضى فيها يومين فى نهاية كل أسبوع ، أكتب
خلالها « بريد الجمعة » وما تسمح به عرائس الإلهام .. مستمتعًا بهدوء
المكن وسكينة الشارع الضيق الذى تطل عليه الشقة، ومعظم مبانىه
الجيدة خالية من البشر .

وتوجهتُ لواحتى فى يومى الأول معها حاملًا كتبى وأوراقى،
ببدلتُ ملابسى بملابس مريحة ، وتذكرتُ وأنا أفعل ذلك أديبى
المفضل فى الأدب الفرنسى أونوريه دى بلزاك ، الذى كان يتهيا للكتابة
بارتداء رداء راهب ، إشارة لما تتطلبه الكتابة من تجرد من الدنيا ورهينة.
واعترمتُ أن أقضى المساء والليل مثله أحتسى القهوة والشاى وأكتب.
وما أن جلستُ إلى مكتبى واستغرقتُ فى الكتابة حتى فزعتُ على

صوت دق متواصل شبيه بدق آلات الإيقاع في الفرق الموسيقية الغربية، لكنه دق لا تصاحبه موسيقى .. وإنما طرق متواصل يبدأ خفيفاً ثم يشتد تدريجياً إلى أن يبلغ ذروته بطريقة هائلة تُطير الأفكار من رأسى والأوراق من أمامى ، وتساءلتُ ذاهلاً عن سر هذا البلاء غير المتوقع .. وراعنى أن الدق يتوقف لحظة واحدة بعد الطريقة الهائلة، فيخيل إلى أنه قد انتهى وأواصل الكتابة، فما أن أفعل حتى يبدأ من جديد وينفس الترتيب إلى أن يصل إلى ذروته المفزعة !

حاولتُ تجاهل هذا الدق المزعج ومواصلة الكتابة فلم أنجح في ذلك، فقد كانت الطريقة الأخيرة تفرعنى وتشتت أفكارى ، ولحظة سكونه تداعب أحلامى فى استعادة الهدوء المفقود . ثم أصاب بالإحباط مع استئناف الدق من جديد .

وبعد عدة محاولات فاشلة مع الكتابة استنجدتُ بالبواب لإنقاذى .. وعرفتُ منه أن مصدر هذا الدق شاب يقيم فى الشقة المواجهة لـ «واحتى» الهادئة مباشرة .. وأنه عازف «درامز» بالفرق الموسيقية ويتطلع للعمل كعازف لهذه الآلة المفزعة ، ولهذا فهو يقضى ساعات اليوم وحتى الهزيع الأخير من الليل فى التدريب على آله !

ياإلهى !.. أهذه هى «الواحة» التى فررتُ إليها من ضجيج المرور

تحت نافذة مسكني ، والتي تؤرقني بالرغم من أنها تقع بالدور السادس؟.. وكيف أكتب « بريد الجمعة » هذا المساء وسط هذا الدق اللعين ؟

تحدثتُ إلى الشاب من شرفة المسكن بواسطة البواب ، وشرحتُ له ظروفى وكيف أن سائقًا من « الأهرام » سوف يحضر إلى فى الصباح ليتسلم منى « بريد الجمعة » لكى يلحق بموعد الطبع ، ورجوئُهُ أن يتوقف عن الدق بعض الوقت رحمة بى ! فكان شابًا مهذبًا واعتذر اعتذارًا رقيقًا عن إزعاجه لى بتدربه المستمر على آلة الدرامز ، لكنه اختتم اعتذاره برجاء عجيب لى : هو أن أصبر عليه « شهرًا » واحدًا فقط . أتحمّل خلاله هذا الدق المتصل لأنه يستعد لأداء امتحان فى الدرامز يتوقف عليه مستقبله وأمله فى الالتحاق بإحدى الفرق الكبيرة، لهذا فهو مضطر للتدريب ليل نهار وإلا ضاعت منه الفرصة !

كدتُ أصرخ باكيًا من قسوته علىّ وهو يرجونى الصبر على هذا الطرق المستمر شهرًا كاملاً وليس ساعة أو بضع ساعة ! ويئستُ من المحاولة فغيرتُ خطتى معه ، وقلتُ له إننى أقدر « طموحه » الفنى ، وأتوقع له من خلال ما سمعتُ من دقه « الجميل » أنه سيكون عازف درامز عظيمًا فى المستقبل القريب بإذن الله ، لكن النجاح لا يتحقق بالتدريب الشاق وحده ، وإنما بتقسيم الوقت كذلك ومنح الجسم ما

يحتاج إليه من راحة كافية ، ولهذا فإنني أرجوه أن يكتفى من التدريب هذه الليلة بهذا القدر لكي ينهض في الصباح التالي نشيطاً يواصل الاستذكار بلا كلل !

ولست أدري ، هل اقتنع هذا الشاب بما قلته له ، أم أنه شعر بشيء من الإشفاق على فوعدني بأن يتوقف بعد ساعة واحدة لأنه يريد أن يحفظ « مازورة » - أي جملة موسيقية إيقاعية - ضرورية للغاية لنجاحه في الامتحان ؟ وشكرته بحرارة على إنسانيته وعدت لمواصلة الكتابة ، فكنت أكتب جملة أو جملتين خلال الطرقات الخفيفة والمتوسطة ، ثم أفزع وأتوقف عن الكتابة أو يسقط مني القلم عند دقة « الدوم » الختامية الرهيبة ، وهكذا إلى أن شبع من التدريب .. وكتبْتُ « بريد الجمعة » بعد معاناة شديدة ، وفي الصباح غادرتُ « الواحة » عازماً مقاطعتها حتى ينتهي هذا الشاب من تدريبه ، ودعوتُ له من قلبي بالنجاح في الامتحان ، لكن الله سبحانه وتعالى لم يستجب فيما يبدو لدعائي ، فقد رجعتُ إلى « الواحة » المهجورة بعد شهر فوجدتُه يواصل التدريب في النهار والليل ، وعرفتُ أن الحظ لم يحالفه في اجتياز الامتحان، وأنه يتدرب بهمة ودأب ليجد لنفسه فرصة أخرى !

وشهراً بعد شهر وأنا أسمع طرق الباتري أو الدرامز المزعج .. حتى اعتاد جسمي الانتفاض مع دقة « الدوم » الشهيرة في ختام جملة

الموسيقية المكررة ، وحتى خُيِّلَ إلى أنني أصبحتُ أنتفض تلقائيًا قبيل أن يصل الشاب إلى « الدوم » الرهيب ، على طريقة رد الفعل المنعكس الشرطى عند عالم النفس الروسى الشهير بافلوف .

وشهرًا بعد شهر زحف العمران على الشارع الضيق بالسيارات وأجهزة التأسيس والميكروفونات ، وافتُحَ فى العمارة التى تقع فيها الواحة محل صغير لسباك يأتى إليه صاحبه راكبًا الموتوسيكل بصوته « الرقيق » ! أة الشاب عازف الدرامز فقد راح يتدرب فى الصباح وفى الظهر وفى المساء والليل ، على طريقة لا يأس مع الدرامز ، وتبدد حلم الواحة الهادئة وصيرمعة الكتابة على طريقة بلزاك ، وأصبحت الشهور الطويلة تمضى دون أن أقرب منها ، ثم سلمتُ باليأس من أى أمل فيها فتخلصتُ منها ، وشجعنى على ذلك أنها لم تنل رضا الأسرة من البداية.

أما حين غالبتُ تردد، منذ عامين ، وانتقلتُ من المسكن الذى عشتُ فيه ثلاثين عامًا وألفه وألفنى ، وعرفتُ جيرانى فيه وعرفونى ، إلى مسكن أوسع .. فلقد تعلتُ بالأمل فى أن يكون أقل ضجيجًا لأنه لا يطل على شارع حافل بكر وسائل المواصلات ليل نهار كما كان الحال فى مسكنى السابق ، وكاء هذا الحلم أن يتحقق نسبيًا بالفعل ،

لولا أنني نهضتُ من نومى فى اليوم الأول من انتقالى إليه على أصوات
خُيِّلَ إلى معها أن الشاب عازف الدرامز فى الهرم قد طاردنى إلى مسكنى
الجديد وأقام تحته ! فلقد صحوْتُ مفزوعًا على طرقات عمائلة لطرقاته
على آله، غير أنها من النوع النشار الذى لا تناسق فيه ، وعجبتُ من
أين تجيء هذه الطرقات المتتالية .. ثم تساءلتُ : وما هذا الصوت
الرهيب الذى يشبه - مع الفارق - نعيق آلة « الأبوا » فى الأوركسترا
السيمفونى ؟ .. وغادرتُ فراشى متضايقًا ، وخرجتُ إلى الشرفة
لأبحث عن سر هذه الأصوات المزعجة ، فإذا بى أرى تحت نافذة غرفة
نومى مباشرة ٢٠ أو ٣٠ عازف درامز كعازف الهرم ، يعزفون
سيمفونية الدق والخطب والإزعاج ، ولكن بالشواكيش والمناشير
والمطارق ، أما آلة « الأبوا » فقد اتضح أنها آلة كشط الخشب
الكهربائية ..

يأربى .. إنها ورشة نجارة كاملة تعمل فى الشارع الذى يفصل بين
عمارتى والعمارة المقابلة .. وبعد أن زالت الدهشة وتحريّتُ الأمر
علمتُ أن عمال الورشة - وهى ورشة حكومية تابعة لمصلحة الضرائب
على المبيعات - يضيقون بحرارة الجو داخل ورشتهم فيخرجون بالآتهم
« للعزف » فى الهواء الطلق ، وأن هذا الحال سوف يستمر إلى ما لا نهاية

لأنهم - في هذه الحالة - لا يتدربون استعدادًا لأداء امتحان ينتهى في موعد محدد ، وإنما يمارسون عملهم اليومي الدائم والمستمر .

فما المخرج من هذه الوكسة ؟ وكيف لم أكتشف أمر هذه الورشة السيمفونية عند التعاقد على هذا المسكن ؟

لابد أننى قد تعاقدتُ عليه في إجازة حكومية كانت الورشة خلالها مغلقة ، وكان الشارع هادئًا نسبيًا ، ثم انتهت الإجازة وعادت الحياة إلى طبيعتها .

لقد كانت « ملحمة » أخرى علمتُ خلالها أن سكان العمارة قد استعانوا على هذه الورشة الحكومية بشرطة المرافق أكثر من مرة ، فكانت تزيل إشغالاتها وتجبر عمالها على العمل داخل جدران الورشة ، ويستمر الحال هادئًا بعض الوقت ثم يأمنون الحساب ، فيخرجون إلى الهواء الطلق من جديد .. وهكذا ، ولم أفكر في الاستعانة على هذه الورشة بشرطة المرافق ، وإنما أثرتُ كعادتى أن أسلك الطريق الودى لحل المشكلات ، وشكوتُ حالى إلى زميلة عزيزة لى بـ « الأهرام » لها خبرة في الشؤون الاقتصادية والضرائبية ، وتتعامل مع مصلحة الضرائب كصحفية ، فتحدثتُ الزميلة إلى الرجل الفاضل مدير عام مصلحة الضرائب على المبيعات ، وتفضل الرجل مشكورًا بإصدار

تعليماته للمهندس مدير الورشة بإلزام عمالها بالعمل داخل جدرانها وليس في الشارع ، وبألا يمارسوا خارجها سوى الأعمال غير المزعجة كدهان الأثاث .

وهذا الحال بعض الوقت .. ثم هاجت الآلات الإيقاعية من جديد تحت نافذة غرفة نومى ، حتى ترحمت على أيام عازف الهرم .

ولجأت إلى الصديقة مرة أخرى ، فاستاء الرجل لعدم الالتزام الدقيق بتعليماته ، وأصدر تعليمات مشددة بالالتزام بها .. واستقر الحال إلى حد كبير .. لكننى وعازفى هذه الورشة لا نزال نمارس لعبة « القط والفأر » .. يهدأون بعض الوقت فأرضى وأستريح ، ويهيجون فى أوقات أخرى فأشكو وأتذمر .. والله الأمر من قبل ومن بعد !!

ألا تعرف مكاناً « هادئاً » بحق أستطيع أن أكتب وأقرأ فيه بلا درامز ولا مطارق .. ولا نعيق للميكروفونات والسيارات والكاسيتات والميكروفونات ؟

نعم .. لا .. ربما !

اسأل أى إنسان يقابلك هذا السؤال البسيط
: هل أنت سعيد ؟

وسوف تحصل منه غالبًا على هذه
الإجابات الثلاث المتناقضة فى نفس الوقت ،
وربما أيضًا بنفس هذا الترتيب . إذ سوف
يجيبك فى البداية وبغير تفكير : نعم . وقبل أن
تطلب منه أن يحدثك عن أسباب سعادته ،
سيكون قد راجع نفسه « وتذكر » بعض
أوجه النقص فى حياته ، وبعض آماله
المحبطة وتطلعاته المحرومة .. وهزائمه
الشخصية ، « فيصحح » إجابته الأولى
مستدرًا ويقول لك : لا !

وقبل أن تطلب منه أن يشرح لك أسباب تعاسته ، سيكون قد راجع نفسه أيضًا للمرة الثانية « وتذكر » بعض ما يرضى عنه في حياته ، وبعض ما أنعمت عليه به السماء من نِعَمٍ جليلة يطالبه ضميره الديني بألا يجحدها أو يتجاهلها لكيلا « تسحبها » منه الأقدار وتعطيها لمن يشكر ربه عليها ، فيستدرك مرة أخرى ويقول لك حائرًا : لا أدري ، ربما كنت سعيدًا .. وربما لم أكن .. لكن الحمد لله على كل حال !

وهكذا نحن جميعًا أمام هذا السؤال البسيط ، وفي هذه الإجابة الثلاثية تتمثل حيرة الإنسان الأزلية مع السعادة .. وحلمه الأبدى فيها !

وبعض أسباب هذه الحيرة يكمن في أن الإنسان يعتقد دائمًا أن هناك مَنْ هم أسعد حالاً منه ، وبالتالي فهو لم يبلغ بعد « مثال » السعادة الذي يتطلع له ويلمس له صورًا براقية لدى الآخرين ، وبعضها يرجع إلى الخطأ البشرى القديم الذى تُصَوِّرُهُ هذه العبارة الحكيمة للأديب الأيرلندى العظيم برنارد شو حين قال : إن كل من تؤلمه ضروسه يظن أن كل من لا يشكون من أسنانهم سعداء !

وبعضها يرجع كذلك إلى أننا كثيرًا ما نجهل أسباب السعادة الحقيقية المتاحة لنا ، ولا نعرف لها قدرها إلا إذا حرمتنا الأقدار منها ، فبكينا عليها وأدركنا كم كنا حقى وأغبياء حين لم نلتفت إليها في حينها ،

ولم نستمتع بها كاملة حين كانت بين أيدينا ، وأجمل تصوير لهذه الحالة هو ما جاء على لسان الفتاة العمياء « جرتروود » في حوارها مع القس الذى تبناها وعلمها الأشياء ، فى رواية « السيمفونية الريفية » للأديب الفرنسى أندريه جيد ، حين قالت له :

إن الذين يُبْصِرُونَ لا يدركون سعادتهم .. لكنى أنا التى لا أبصر
أورك سعادة السمع !

ومن أسباب هذه الحيرة أيضًا أننا نحن البشر لا نريد فقط أن نكون
سداء ، بل وأسعد أيضًا من الآخرين .. وبما أننا نتصور غالبًا أن
الآخرين أسعد حالاً مما هم عليه بالفعل ، فبهيات أن نبلغ هذه الغاية
العززة أو نعتزف لأنفسنا بما نحن فيه من سعادة.

أه أهم هذه الأسباب وأعمقها أثرًا فى تقديرى فهى أننا نتعامل مع
حياتنا فى كثير من الأحيان بمنطق التاجر غير الأمين الذى يريد أن
يتهرب من سداد ضرائبه الكاملة على أرباحه ، فيعتمد إلى تضخيم
الخسائر تقليل الأرباح ، ليحجىء حسابه الختامى فى النهاية خاسرًا ولا
تستحق الدولة عنه أية ضريبة !

ولسنا نفعل ذلك بوعى كامل به أو عامدين ، لكنها طبيعة الإنسان
التي تميل دائمًا للثرثاء للنفس ، وإلى استصغار ما نالته من عطايا الحياة

والرغبة الدائمة في الاستزادة منها على طريقة البحر - في المثل الشعبي القديم - الذى يحب الزيادة دائماً ويكره النقصان .

وبهذا الميزان المائل .. كثيراً ما يعد الإنسان حسابه مع السعادة فيسجل في الخانة الأخيرة منه أنه حساب خاسر وليس رابحاً !

انظر مثلاً إلى ذلك البطل العربى والخليفة الأموى فى الأندلس «عبد الرحمن الناصر» الذى ولى الحكم وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، واستقبلت الأمة ولايته بالاستبشار والرضا والأمل فى أن يعيد توحيد مملكة العرب فى الأندلس بعد أن تمزقت معظم أطرافها بالعصيان والتمرد ، فهب الخليفة الشاب المحبوب من رعيته وقاد جيوشه لمحاربة الولايات الخارجة عليه ، وأخضعها جميعها ، واسترد كل ما ضيعه أسلافه الضعفاء ، وسار النصر والفوز دائماً فى ركابه حتى وصفه ابن خلدون فى تاريخه بعبارة «حَلَفِ السُّعُودِ» ، أى حليف السعد والفوز والانتصار ، واستغرق ذلك منه ١٨ عاماً حتى أحكم فرض سلطانه على المملكة ووسع رقعتها ، ثم دعا بنفسه خليفة للأندلس ، وتسمى باسم «الناصر لدين الله» ، واستمتع بالقوة والمجد والنفوذ وحب الجماهير بعد ذلك طوال ٣٢ عاماً ، ثم مات فى السبعين من عمره بعد أن حكم بلاده ٥٠ عاماً حقق خلالها من جلائل الأعمال ما يعجز الخيال عن تصوّره .. انظر إلى هذا البطل المنتصر محبوب الأقدار ماذا

كتب بخط يده عن حياته وهو في أخريات عمره .. لقد كتب - كما سجل ذلك ابن خلدون في تاريخه :

أن أيام السرور التى صَفَتْ لى هى يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا، ويوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ! إلخ .

وأحصى ابن خلدون أيام السرور هذه فى حياته فوجدها ١٤ يومًا فقط لا تزيد ، وعلق على ذلك قائلاً : فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها لأولياتها ، وبُخلها بكمال الأحوال . فهذا الخليفة حلف السعود المضروب به المثل فى الارتقاء فى الدنيا وفى الصعود ، ملكها خمسين سنة وسبعة أشهر وثلاثة أيام ، فلم تَصْفُ له إلا أربعة عشر يومًا .. فسبحان ذى العزة القائمة .. والمملكة الدائمة ... لا إله إلا هو !

وانظر أيضًا إلى ذلك الشاعر الألمانى العظيم « جوته » الذى عاش بين عامى ١٧٤٩ و ١٨٣٢ ، واستمتع بكل صور المجد والنجاح والثراء والشهرة والتكريم والسعادة الشخصية والحب ، حتى لقد انطوت صفحة حياته وهو يحظى بحب فتاة صغيرة جميلة، فتنت به وأخلصت له الحب وحنّت عليه وهددت مشاعره حتى الرمق الأخير من عمره .. انظر إليه ماذا قال لصديقه الناقد الأدبى الشاب إكرمان الذى اقترب منه فى سنواته الأخيرة وكتب سيرته الذاتية ؟ لقد قال له :

« لقد عُدِّدْتُ دائماً من المحظوظين ، ولستُ في الحقيقة أشكو من حياتي ، لكنه من الحق أيضاً أن أقرر أنني لم ألقَ فيها سوى التعب والهم ، وأستطيع أن أقول في النهاية : إنني خلال خمس وسبعين سنة - عمره وقت هذا الحديث - لم أستمع بالراحة التامة شهراً واحداً ، وأن حياتي كانت دائماً دفْعاً مستمراً للحجر إلى قمة الجبل ، فما أن يصل إلى القمة حتى تدحرجه الآلهة إلى السفح وترغمني على إعادة دفعه لأعلى من جديد كما في أسطورة سيزيف الإغريقية » .

ماذا نقول حين نقرأ ذلك .. أو حين نسمع كلاماً مشابهاً له من أي إنسان آخر يُعتبر بحق من المحظوظين و « حلفاء السعد » ؟!

هل نقول ما قاله ابن خلدون : فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها لأوليائها .. وبخلها بكمال الأحوال ؟

أم نقول : فانظر أيها العاقل إلى ميل الإنسان الغريزي للثناء لنفسه واستصغاره الدائم لعطايا الحياة له ، وتعذيبه لنفسه بحلم أبدى في « مثال » لا وجود له إلا في خيال الحالمين بالسعادة المطلقة ؟

إنني شخصياً من أنصار هذه العبارة الأخيرة .. ومن أنصار المبدأ الإيماني العظيم « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » - صدق الله العظيم .. ومن المؤمنين بأن لكل إنسان في الوجود من سعاده الخاصة ما ينبغي

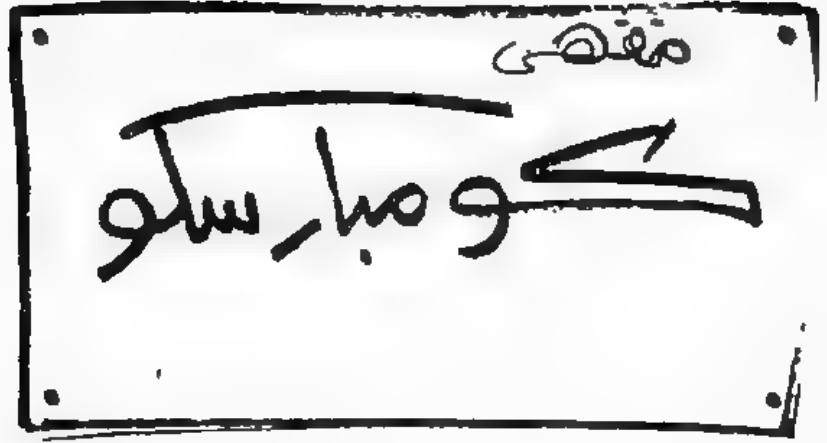
له أن يرضيه ، ومن همه بنفسه ما يدعو ربه لأن يتم نعمته عليه فيكشفه عنه أو يُعينه على قبوله والعيش به باعتباره من الخسائر الإنسانية الضرورية التي لا يخلو منها كشف الحساب الختامى لرحلة أى إنسان فى الوجود مع الحياة .

كما أننى أيضاً من أنصار مبدأ « السعادة الخفية » التى لا يدرك كنهها إلا أصحاب القلوب الحكيمة والبصائر السليمة . والتى عَبَّرَ عنها ذلك القطب الصوفى الكبير الذى سُئِلَ : كيف يحتمل هو ومريدوه حياتهم المتقشفة الجافة الخالية من كل متع الحياة ؟ .. فأجاب سائله : « لو علم الحكام ما نحن فيه من نعيم بحالِ دونا عليه بالسيوف » .. أى لقاتلونا بالسيوف ليأخذوا منا بعضه ويستمتعوا به مثلنا !

كما أننى أيضاً من أنصار الحكمة الهندية القابضة التى تقول : كل شىء مكروه .. سيصبح مألوفاً لنا بعد حين !

وتعجبني كثيراً تلك القصة الأسبانية الشعبية التى تحكى عن رجل كان دائم السخط لأنه لا يملك حذاءً ، إلى أن رأى رجلاً بلا قدمين فرضى عن حفائه لأول مرة، وكف عن الشكوى والسخط منذ ذلك الحين ..

فهل تشاركنى هذا الاختيار يا صديقى ؟ .. وبماذا سوف تجيبنى إذا سألتك هذا السؤال البسيط الذى بدأت به حديثى إليك ؟



الأمل الأخير

لم أعرف لهذا الميل الشخصى عندى سببًا
حتى الآن !

فأنا - ومنذ فجر شبابى - أميل للاقتراب
من المبتدئين والمغمورين وأصحاب الأدوار
الهامشية فى الحياة ، أكثر مما أميل للاقتراب
من الكبار والنجوم وأصحاب الأدوار
الرئيسية فى مجتمعهم .

فإذا نزلت مثلاً بفندق كبير بمدينة ساحلية أوفى الجنوب ، اهتممتُ
بالتعرف على صغار العاملين فيه بأكثر مما أهتم بالتعرف على مديره
الخطير . وإذا حضرتُ حفلاً للموسيقى الكلاسيك في مصر أو في
الخارج وجدتُ عيني تتسلل بعد الإعجاب المبدئي بالمايسترو الكبير
الذي تركز حوله الأضواء ، لتسحب منه وتستقر على عازفي الآلات
الهامشية في الصفوف الخلفية ، وكلما تراجعتُ أهمية الآلة التي يعزفها
العازف، كلما ازداد اهتمامي بتأمله ورثائي الخفى له لانحسار الضوء
عنه ، وإذا شاهدتُ في التلفزيون فاصلاً غنائيًا وجدتُني لا إرادياً أتأمل
باهتمام أفراد الكورس الذين يتوارون خلف أفراد الفرقة الموسيقية
ويؤدون دورهم في الظل ، وأتمثل مشاعرهم وهم يجدون الأضواء
تتغافل عنهم دائماً وتتركز على النجم الساطع في مقدمة المسرح !

وقد انسحب ميلى هذا أيضاً إلى علاقاتى الاجتماعية ، فوجدتُني لا
أسعى غالباً إلى صداقة أحد من الكبار والمهتمين ، ولا أحفل بالاقتراب
من الشخصيات البارزة في الحياة العامة ، ولقد عرفتُ بعضهم وهم في
مرحلة الكفاح وإثبات الذات .. فما أن حققوا صعودهم وأصبحوا
نجوماً ساطعة في السياسة والحكم والإدارة .. حتى وجدتُ طبعى
يغلبنى - وكل إنسان محكوم بسجن طبعه كما يقول توفيق الحكيم -
ووجدتُني لا اتصل بهم إلا إذا اتصلوا بى ، ولا أسعى لزيارتهم في

مكاتبهم كما كنت أفعل وهم في مرحلة الكفاح والتطلع للمستقبل
الواعد .

ولا بد أن هذا الميل نفسه كان هو المسئول عن صداقتى الشخصية في
إحدى مراحل حياتى لواحد أو اثنين من العاملين في المجال الفنى ممن
يطلقون عليهم لقب «الكومبارس» ، فلقد عرفتهم خلال سهراتى
الليلية في مرحلة الشباب ، ووجدتني مهتمًا بأمرهم وشغوفًا باكتشاف
عالمهم الخاص ، ومشاركتهم اهتماماتهم ومشكلاتهم وأحلامهم
العاجزة لأنفسهم بالنجاح الذى لا يخبى أبدًا .

وفي هذه الفترة من حياتى كنت أقضى سهراتى في مقهى الفيشاوى،
أو في مقهى سوق الحميدية ، حيث كانت تتجمع شلة كبيرة من هؤلاء
المغمورين يتسامرون ويتبادلون الأخبار والتعليقات على ما يجرى في
الوسط الفنى ، ويحلمون دائمًا بشيء عزيز يمثل بالنسبة لهم الحل
السحري لبطالتهم ، وديونهم وإحباطهم ، هو «الأورد» .

و «الأورد» هو الكلمة الإنجليزية التى تعنى أمر العمل ، وحين
يتلقاه أحدهم من أحد مساعدى المخرجين يبتهج بقرب انفراج
الأزمة، ويتهلل استعدادًا للعمل القريب ، ويدعو الله أن يكون لأيام
عديدة وليس ليوم واحد أو يومين . ولأن من عادتى أيضًا أن أشارك

أصدقائي اهتماماتهم وهمومهم ، فلقد أصبح لكلمة « الأوردر » هذه قيمة كبيرة عندي مع أنى لا أعمل بالمجال الفنى ، لأنها تعنى بالنسبة لى ابتهاج الأصدقاء ، وانتعاش أحوالهم المؤقت قبل أن يرجعوا مرة أخرى للبطالة والمعاناة وانتظار الفرج ، فضحكتُ مع هؤلاء الأصدقاء مبتهَجًا حين يحىء « الأوردر » ، وتجهمتُ معهم مكتئبًا حين يطول انتظاره ، وشاركتهم التندر على متعهد بوفيه نقابتهم الأمى الذى كانوا يستدينون منه حين كان يتسلم لأحدهم هذا « الأوردر » فى غيابه ، فيستقبله بابتهاج حين يحىء ويبشره بالخبر السعيد قائلاً له : مبروك جالك « كوردر » !

ولأن المرحلة كلها كانت مرحلة انغلاق اقتصادى تام .. وليست هناك محطات تليفزيونية عربية ، ولا محطات فضائية ، ولا شركات إنتاج كثيرة ، فلقد كان الرزق شحيحًا للغاية ، ولم يكن هناك من مصدر رزق لهؤلاء المغمورين إلا ما يتلقونه من أوامر العمل هذه من بعض مخرجى السينما والتليفزيون والإذاعة مقابل جنيهاة قليلة ، ولهذا فقد كان « المخرج » بالنسبة إليهم كائنًا أسطوريًا رهيبيًا يملك أن يفتح لأحدهم أبواب السعادة والرزق ، ويملك أيضًا أن يغلقها دونه . ولأن المغمورين كثيرون ، والطلب على العمل قليل ، فلقد كان هؤلاء المغمورون يتنافسون فى طلب ود هؤلاء المخرجين ومجاملتهم .. بل

ونفاقهم أيضًا بلا حرج ، ويعترفون لأنفسهم ولغيرهم بهذا النفاق بلا أية محاولة للدعاء أو التظاهر ، ويقرون بأنهم ينافقون هؤلاء المخرجين بكل الحيل المشروعة لكي يحصلوا من ورائهم على رزقهم الشحيح .. وكان هذا هو أكثر ما يعجبني فيهم .. إذ كنت أقارب « نفاقهم » غير الضار الذي اضطرتهم إليه قسوة الحياة ، بنفاق غير المضطرين إليه من عباقرة النفاق السياسى والإدارى ، طلبًا تلمزيد من الصعود والترقى .. أو طلبًا للبقاء فى المناصب العليا ، وأميل لالتماس العذر لهؤلاء المغمورين البؤساء فى نفاقهم .. ولا أجد للعباقرة أى عذر فى نفاقهم الممجوح والضار سياسيًا وإداريًا وعلى كل المستويات ، فالنفاق يفسد الآليات ويهز ميزان العدل فى أيديهم ويخل بمبدأ تكافؤ الفرص .

وبعض القيادات الوزارية والإدارية ، حتى لو صمدت لأمواج النفاق العاتية فى البداية .. فإنها قد لا تصمد له حتى النهاية .. لأن النفس تميل بطبعها لساع ما يرضيها حتى ولو تشككت فى صدقه .

ولأن أحد السياسيين القدامى قد قال فى أمير مقاطعته فى التتصور الوسطى متحديًا رفاهه من الحاشية : « أسمع أن أحول هذا المأفون إلى مجنون خلال بضعة أيام .. بالنفاق » . لهذا فقد تسامحت مع نفاق هؤلاء البؤساء ، ونعاطفت وضحكت لبعض فنون نفاقهم المبتكرة ،

ولم أفعل نفس الشيء مع النفاق الآخر القاتل للتواضع والعدل
والمساواة بين البشر .

وكنْتُ بطبيعتي في حُب تأمل الأشياء والأشخاص أستحث هؤلاء
المغمورين إذا جلسْتُ إليهم ليرووا لي عن أساليب « المجاملة » التي
يتبعونها مع المخرجين ، فيقولون لي إنها تشمل التطوع لتقديم كل أنواع
الخدمات الشخصية بغير أن يطلبها منهم المخرج .. لأن للمتطوع فضلاً
يزيد عن فضل الملبي للطلب أو الرجاء ، وقد تفوق أحدهم في قضاء
هذه المصالح الشخصية فأصبح اسمه لديهم في الوسط الفني كله
« عبد الحميد مشاوير » ، لنشاطه في قضاء المشاوير الخاصة بالمخرجين
والمنتجين .. وتفوق آخر في أعمال السكرتارية المجانية لبعض المنتجين ،
فأصبح اسمه المعروف به بينهم هو « حسن سكرتارية » ، وكل ذلك إلى
جانب الإشادة المستمرة بعبقريّة المخرج الفريدة وموهبته الفذة التي
أثرت - عن غير قصد - على طبقة الأوزون في السموات العلا ! إلى
جانب مجاملة المخرج في كل مناسباته الاجتماعية والعائلية والمناسبات
السعيدة والمناسبات الحزينة .

ومع طول العشرة ألفتُ حيل هذه المجاملات منهم .. واعتبرتها من
ضرورات العمل بالنسبة إليهم ، لكنني وجدتُ نفسي ذات ليلة مبهوراً

بحيلة مبتكرة من هذه الحيل لم أسمع بها من قبل . . ولم تصادفنى حيلة مثلها فى كل ما قرأتُ من قصص تشيكوف وجوجول ودستوفسكى عن النفاق الإدارى الذى كان شائعاً فى روسيا القديمة فى زمنهم . فلقد كنتُ جالساً فى مقهى سوق الحميدية ذات ليلة مع صديق من هؤلاء المغمورين ، فجاء إلينا زميل له فى المهنة لا أعرفه وجلس معنا ، ثم راح يشكو لصديقى من إحباطه ويأسه من الفرج ، لأن « أولاد الأفاعى » من المغمورين الآخرين لم يدعوا له أية فرصة « للاستفادة » من مناسبة وفاة والدته المخرج فلان التى انتقلت إلى رحمة ربها صباح نفس اليوم !

واجتذب الحديث اهتمامى بشدة ، فأصغيتُ إليه بكل جوارحى ، وسألتُ صديقى عما يقصده بـ « الاستفادة » من مثل هذه المناسبة الحزينة ! فابتسم ابتسامة العارف ببواطن الأمور وطلب من زميله أن يوضح لى مقصده ، فروى الرجل أنه قد علم بوفاة والدته المخرج فى الصباح ، فتوجه على الفور إلى السراى الذى ستشيع منه إلى مثواها الأخير ، وقدم للمخرج عزاءه الحار وهو داعم العين ، وحاول الوقوف إلى جواره ، لكن أكتاف المنافسين أبعدته عنه بعنف ، فتعلق بالأمل فى أن يشارك فى حمل الجثمان عند خروجه من المسجد إلى العربة التى ستنقله إلى المستقر الأخير ، لكن المنافسين لم يدعوا له أيضاً أية فرصة للاقترب منه ، وكلما كافح لخلق ثغرة فى زحام أجسامهم حوله ، دفعه « المتجاملون » الأشداء من زملائه بعيداً عنه ، ولم يفقد الأمل بالرغم من

ذلك ، فما زالت هناك فرصة أخرى حين تصل العربية للمدافن ، ويتم إنزال الجثمان هناك ، فهزول وراء العربية إلى المدافن .. وترقب فرصته بانتباه شديد .. لكن .. قاتل الله أولاد الأفاعى ، فلقد أحاطوا بالجثمان مرة أخرى في حلقة محكمة ولم يتيحوا له أية فرصة لأن يراه المخرج وهو يشارك في حمله باكياً ، فيعرف مدى إخلاصه له ، ويتذكره وهو يصدر أوامر العمل في الفيلم الجديد ، فماذا يفعل وسط هؤلاء الأبالسة !

وعند هذا الحد من قصته توقف عن رواية القصة ، وقال لصديقه إنه لم يبق له بعد فشل كل محاولاته السابقة إلا أن يضرب ضربه الأخيرة ويستخدم مع المخرج «حكاية النور» كآخر أمل له قبل ضياع الفرصة .

وقبل أن يواصل حكايته ، سألتُه مندهشاً : ما هى أولاً حكاية النور هذه ؟ فأوماً إلى صديقى المغمور بيده طالباً منى الصبر لأعرفها من سياق الحديث وهو يتسم ابتسامة من يعرف سرها ويتوقع أن يدهشنى !

وواصل الرجل حديثه ، فقال إنه حين يثس من كل أمل في حمل الجثمان رتب في ذهنه أن ينزل وراءه إلى مستقره الأخير ويبقى فيه إلى أن تنتهى كل المراسم الحزينة ، ثم يخرج إلى المخرج منفِعلاً ومتأثراً ويقول له حكاية النور .. وبغير أن يتوقف ليشرحها قال إنه قد فعل ما رتَّب له بدقة ورجع من حيث كان ، وتقدم إلى المخرج منفِعلاً ، وهم بأن ينطق

بـ «الحكاية» ، فإذا به يجد زميلاً له كانت خطواته إلى المخرج أسرع من خطواته .. ولسانه أسبق من لسانه ، يقول له بصوت أكثر انفعالاً واهتياجاً :

- رأيته بعيني والله يا بيه .. رأيت النور يحيط بالمرحومة في قبرها ويحول ظلامه إلى نهار !

فوقف الرجل مبهوراً بعد ضياع الأمل الأخير ، وعقد الإحباط لسانه فلم يستطع - كما قال - حتى أن يستفيد من نفاق زميله فيؤيد زعمه للمخرج ، ويدعم شهادته بأن السيدة والدته من الأطهار الأبرار الذين يحيل الله سبحانه وتعالى قبورهم إلى نعيم .

واختتم الرجل حديثه متسائلاً في مرارة :

- كيف نستطيع التقاط أرزاقنا وسط هؤلاء الأبالسة ؟!

فإن كنت قد استمتعت في حياتي بقصة قرأتها أو سمعتها فإنني لم أستمع بقصه كما استمتعت بهذه القصة وتعجبت منها وتأملت طويلاً .
ولسنوات طويلة ظلت أحداث هذه القصة التي يعجز خيال أروع المؤلفين عن ابتكارها حية في مخيلتي ، أتذكرها في مواقف عديدة .. وأسترجع أحداثها .. وأعجب لمبتكرها المبدع الخلاق في فن النفاق .

ولقد كان أكثر ما أثار دهشتي هو أنها قصة مألوفة لم تُثر دهشة صديقي المغموور حين سمعها معي ، وفهمت من ذلك أنها حيلة مجرّبة تم استخدامها من قبل مع بعض المخرجين وحقت نتائجها المرجوة ،

لكن الجديد هذه المرة هو أن الزميل الذى وضع كل أمله فيها ، قد صدم بأن هناك من سبقه إليها بلحظات فأفسد عليه خطته .. لعنة الله عليه .

أما هذا الصديق المغمور الذى شاركته سماع هذه الحكاية العجيبة فقد انتقل إلى جوار ربه منذ سنوات يرحمه الله ، وأما هذا الزميل «المحسور» فما زلتُ أفتش عنه كلما شاهدت عملاً من الأعمال التليفزيونية والسينمائية لأطمئن إلى أنه يكسب رزقه ويواصل حياته فى أمان . وكلما صادفتُهُ فى أحد هذه الأفلام تأملتُهُ باهتمام شديد .. وتساءلت : هل ما زال يستخدم حكاية النور هذه فى تسير أموره ؟ أم أن فنون النفاق قد تجاوزت هذه الحيل القديمة ، وتحولت إلى فنون أشد تركيباً وتعقيداً .

ولأننى انقطعتُ للأسف عن صحبة هؤلاء المغمورين منذ سنوات طويلة ، فلستُ أستطيع الإجابة على هذا السؤال ، لكننى أستطيع من ناحية أخرى أن أسجل - بانبهار - مدى التطور التكنولوجى الخطير الذى ارتقت إليه فنون النفاق فى عالم الإدارة والسياسة ، حتى أصبحت «حكاية النور» هذه - إلى جوارها - حيلة بدائية من العصر الحجري .

ولله الأمر من قبل .. ومن بعد !!

هات « شِلن »

كنت مسافر من القاهرة إلى مدينتي
الصغيرة بالوجه البحرى فى زيارة عائلية ،
فتوقفت أمام استراحة من استراحات
الطريق لفنجان من القهوة ..

جلستُ في حديقة الاستراحة أتأمل المكان من حولي وأرشف
القهوة في هدوء لأستعين بها على تجديد نشاطي ومواصلة الرحلة ، فإذا
بى أرى أمامى طفلاً صغيراً يرتدى « تريننج سوت » رثاً .. ينظر إلى من
فتحة في سياج الحديقة ويحدّثنى بما لم أميزه من كلمات . كرر حديثه
المبهم إلى .. فطلبتُ منه أن يرفع صوته قليلاً لأسمعه ، وسألته عما
يريد، فقال بصوت أعلى نسبياً : أقول لك .. هات « شِلن » !

ضحكتُ بالرغم مني .. وتأملتُ مظهره البسيط .. ومطلبه
المتواضع، وتساءلتُ : متى سمعتُ هذه الكلمة المنقرضة آخر مرة
« شِلن » ؟

إن أمثاله في القاهرة والمدن الكبرى يطلبون جنيهاً كاملاً ، وقد لا
يرضون بأقل من نصفه ، فلماذا تتواضع الأحلام كلما ازداد الحال
تواضعاً وبؤساً ؟! .. أشرتُ إليه أن يقترب ، وتحدثتُ إليه للحظات ..
ثم انصرف جارياً وأنا أرقب تعبيرات وجهه المترددة بين الشكر ..
والشك ، إلى أن اختفى وراء السياج ، وأنا ما زلتُ أفكر في هذه المفارقة
الشائعة من مفارقات الحياة .. نعم ، لماذا تتواضع الأحلام أكثر كلما
ازداد الحال صعوبة وجفافاً ، بدلاً من أن يحدث العكس كما يقضى
بذلك المنطق ؟

أنهيتُ قهوتى في سلام وعدتُ لمواصلة الرحلة ، فإذا بوجه هذا

الطفل المتردد يعيد إلى ذاكرتى ذكرى بعيدة كل البعد عن هذا الموقف ،
لكنها بالرغم من ذلك تعكس نفس المفارقة ..

ففى الستينيات كنت محرراً بقسم التحقيقات الصحفية بـ
«الأهرام»، وأقوم إلى جوار عملى به بكتابة بعض التحقيقات الرياضية
فى ملحق الرياضة مع شيخ النقاد الرياضيين العرب المرحوم الأستاذ
نجيب المستكاوى ، وكان صديقى فنان الكاريكاتير الكبير المرحوم
محمد عبد المنعم رخا قد عُيِّن سكرتيراً عاماً لنادى الترسانة ، فوجدتُ
نفسى - وقد كنتُ من قبلها أقضى معه سهراتى كل ليلة - أتردد عليه فى
النادى كل يوم وأعيش شواغله وهمومه ومشاكله الجديدة .

وفى كل مساء تجتمع شلة الأصدقاء التى كنت أألزمها - ذلك
الوقت - فى حديقة النادى ، فلا نغادرها إلا وهو يغلق أبوابه عند
منتصف الليل ، وقد نستكمل السهرة فى بيت المرحوم رخا القريب بعد
ذلك . وفى هذه الجلسات عرفتُ نجم الترسانة الكبير وقتها حسن
الشاذلى واقتربتُ منه وصادقته ، وعرفتُ أيضاً توءمه وشريكه فى
الثنائى الخطير الذى كانا يشكلاونه فى الملعب ، مصطفى رياض ، وقد
كان كل منهما لا يذكر اسمه إلا مقروناً بالآخر ، ويرتبط مضمير أية
مباراة يؤديانها بهما ، فتفوز الترسانة إذا أجادا ، وتنهزم إذا تخلى عنهما
التوفيق ، كما كانا يتنافسان كل موسم على لقب هذاف الدورى ، ويفوز

به غالبًا حسن الشاذلى برصيد من الأهداف يبدو إلى جواره رصيد
هذاف الدورى الآن شديد التواضع ، فلقد نال اللقب مرة بإحرازه ٢٨
هدفًا فى موسم واحد ، ومرة أخرى بـ ٢٥ هدفًا .. ولم تقل أهدافه أبدًا
فى أى موسم عن ٢٠ هدفًا !

وقد نشرت وقتها تحقيقًا طريفًا عن حسن الشاذلى فى « الأهرام »
قلت فيه : إنه وتواءمه يهزمان الفرق الأخرى « بالنصب على الطريقة
الأمريكية » ، فقد كان مصطفى رياض ماهرًا فى المراوغة ومجيد
الالتحام بالمدافعين فلا يجدون مفرًا من عرقلته ، فإذا مضى الوقت
دون أن ينجح فى التسجيل تسلم رياض الكرة ونفذ خطته المدبرة
والتحم بالمدافعين قرب منطقة الجزاء ثم ارتقى على الأرض ، ويأتى
حسن الشاذلى من الخلف صائحًا فى الخصوم : حرام عليكم حتموتوا
الواد ! ..

ويصفر الحكم .. ويضع الشاذلى الكرة على الأرض ويسدد
« الفاول » ، فتطلق الكرة كقذيفة المدفع فى مرمى الخصوم !

وكان الشاذلى يكاد يسجل هدفًا من كل كرة ثابتة على حدود منطقة
الجزاء ، مهما كان دفاع المدافعين ، وظهر التحقيق فى « الأهرام » وسعد
به الشاذلى ، وضحك لعبارة « النصب على الطريقة الأمريكية » هذه

كثيرًا ، وصارحنى بأنهما لا يلجآن إلى هذه الطريقة إلا إذا عجزا عن التسجيل بالطريقة الطبيعية !

ثم ذهبْتُ ذات يوم إلى النادي ، فوجدتُ المرحوم رخا وشلة الأصدقاء من أعضاء مجلس الإدارة والنادى مهمومين بأمر يشغل خاطرهم ، وتساءلتُ عما حدث ، فانتحى بى أحدهم وروى لى أن الشاذلى ورياض قد قارب عقدهما على الانتهاء ربدأ النادى يفاوضهما لتجديده ، فإذا بهما يطلبان من النادى مبلغًا باهظًا لكل منهما مقابل التوقيع ، إلى جانب زيادة بسيطة فى المرتب الشهرى ، ومع أنه لم يكن مسموحًا وقتها بانتقال اللاعبين بين الأندية حتى نهاية العمر إلا بموافقة النادى الأصلى ، لكن الأمر مثَّل مشكلة كبيرة للنادى ، لأنه لو لم يلبَّ مطالب اللاعبين أو يتوصل معهما إلى - ز - وسط ، فسوف يمتنعان عن اللعب أو يلعبان بلا روح ، وقد فشلت كل الجهود معهما لأن يتنازلا عن بعض غلوائهما ويقبلا بمبلغ معقول ، ولم يعد هناك مفر من الصدام معهما !

واستمعتُ إلى ما يقوله لى عضو النادى باهتمام شديد ، وشاركتة همه بهذه الأزمة الطارئة ، ثم تساءلتُ عن المبلغ الباهظ الذى يطلبه اللاعبان ، فزفر قبل أن يجيبنى قائلاً فى مرارة : خمسمائة جنيه لكل منهما ياسيدى .. تصور ؟ !

ودار الحديث بعد ذلك طوال الجلسة عن هذا المطلب « العجيب » ،
وقال أكثر من عضو : ماذا جرى لعقل هذين اللاعبين ؟ .. هل أدارت
الشهرة رأسيهما ؟ .. هل تناسيا ما قدمه لهما النادى ؟ .. هل .. وهل ..
إلخ .

وانصرفتُ مهمومًا بهذه الأزمة التى تشغل خواطر أصدقائى ، وفى
اليوم التالى كتبتُ خبرًا عن مطالب النجمين وقدمتُ للمرحوم
المستكاوى ، فصدرت الصفحة الرياضية « بالأهرام » صباح الغد ، وفى
صدرها عنوان مثير يقول : الشاذلى ورياض يخرجان على الترسانة
بمطالب لا معقولة !!

وللصدفة البحتة فقد كان اللاعبين سيشاركان فى نفس اليوم فى
مباراة بملعب الترسانة ، وذهبتُ إلى النادى لمشاهدتها ، فاستقبلنى
رئيس النادى وأعضاء مجلس الإدارة بحفاوة شديدة ، لأننى قد
أسهمتُ بنشر هذا الخبر فى مساندة موقف النادى خلال مفاوضاته مع
اللاعبين ، ولأنهما قد « اضطربا » بشدة لإذاعة هذا السر المكتوم الذى
قد يثير عليهما « حفيظة » باقى اللاعبين ، ومن المحتمل الآن أن يقبلا
بحل وسط .

وبدأت المباراة ، فكررتُ أحداثها طبيعة الدنيا الغادرة وتقلباتها
الغريبة ، فبعد قليل من بدايتها سجل الشاذلى بمساعدة رياض هدفًا فى

مرمى الخصوم ، فانفجر جمهور الترسانة في المارجات يغنى لهما ويشيد
بهما ، ثم تغيرت الأحوال بعد ذلك فسجل الخصوم هدفًا ، فصمت
الجمهور وراى الصمت الثقيل على الملعب ، ثم تنرق الخصوم وأحرزوا
هدفًا آخر ، وبدا أن المباراة قد ضاعت من الترسانة ، فإذا بنفس هذا
الجمهور الذى كان يغنى للشاذلى ورياض منذ حين ، بنفجر فيهما صابًا
عليهما لعناته وسبابه .. وتنتهى المباراة فيحاصر الجمهور الفريق فى
الملعب يريد الفتك بنجميه المحبوبين وصائهم يصيح فى هتاف
استنكارى جماعى رهيب : خمسمية .. يا خمسمية ؟! .. ثم لا يغادر
الجمهور الملعب إلا بعد وقت عصيب ، ووجدت نفسى من حيث لا
أريد طرفًا فى أزمة حادة بين النادى وجمهوره وبين اللاعبين التبريرين ،
وعتب على الشاذلى نشرى لهذا الخبر لأن نشر « الرقم الكبير » الذى
طلبه هو ورياض قد أثار مشاعر الجماهير المحرومة ضدهما ، فانقلبت
عليهما بعد أن كانت تغنى لهما !

وحاولتُ بقدر جهدى تطيب خاطره ، والاعتذار له عن نشر الخبر
بضرورات المهنة التى لم تكن تسمح لى بتجاهل مثل هذا الخبر
الصحيح ، وأكدتُ له أنه يستطيع بإجادته اللعب فى مباراة واحدة أن
يستعيد حب الجمهور له . وغناءه .. وأناشيده ..

ومرت الأزمة بسلام .. وشغلتنى مشاغل الحياة بعد ذلك عن

التردد على النادي ، ثم تفرغتُ للتحقيقات الصحفية وانتهت هذه الحقبة الرياضية من حياتي ، ولم أعرف هل « رضخ » النادي لمطالب لاعبيه الكبارين ؟ أم أن ما حدث قد هز إصرارهما على تقاضى هذا المبلغ « الباهظ » فقبلا بمبلغ أقل منه ؟!

لكنى أعترف لك الآن أننى كثيراً ما أستعيد فصول هذه القصة فى ذاكرتى كلما قرأتُ عن مطالب لاعبى العصر الحالى المادية من أنديتهم ، أو قرأتُ عن المبالغ « الباهظة » بحق التى يتعاقدون بها معها .. وأننى كلما تذكرتها شعرتُ بشيء من الخجل من نفسى ، وأحسستُ بأننى مدين باعتذار متأخر لهذين اللاعبين الموهوبين اللذين أثرتُ ضدهما - من حيث لا أقصد - مشاعر جمهور ناديهما بنشرى لهذا الخبر !

صحيح أن مبلغ الخمسمائة جنيه وقتها كان يكفى لأن يحصل من يملكه على شقة بالإيجار فى مصر الجديدة ، وأنه أيضاً كان يكفى غالباً لتكاليف زواج شاب ، وأن مرتب رئيس الجمهورية وقتها لم يكن يزيد على هذا المبلغ جنيهاً واحداً ، لكنه يظل بالرغم من كل ذلك ، وبالمقارنة بما أصبح عليه الحال الآن فى بورصة اللاعبين ، مثل هذا « الشلن » الذى سألنى إياه ذلك الطفل الصغير فى استراحة الطريق .

كما يظل أيضاً انعكاساً لروح العصر كله وقتها ، التى كانت فيه

المطالب بسيطة ، والأحلام متواضعة ، في حين تسود العصر الآن كله
روح كروح شاعر العرب المتنبى حين يقول :

إذا غامرت في شئٍ مَرُومٍ فلا تَقْنَعْ بما دون النجومِ

فطعمُ الموتِ في شئٍ حقيرٍ كطعمِ الموتِ في شئٍ عظيم !

كما تسوده أيضًا في بعض جوانبه روح ذلك المثل الإنجليزى القديم
الذى يقول : إذا ضربت فأوجع .. فإن الملامة واحدة !!

مع أنه يستحيل عمليًا وإنسانيًا أن تكون الملامة واحدة لمن يضربك
بوردة ، ولمن يهوى فوق رأسك بمطرقة ثقيلة ، لكنه هكذا يدير الأمر
دائمًا لنفسه مَنْ يريد أن «يفلسف» القسوة والتجرد من دوافع الرفق
والعطف الإنساني .

كما تسوده أيضًا روح كلمة ذلك الفيلسوف الأمريكى المعاصر
الذى يقول لك : إنك إذا طلبت من الدنيا القليل فلن تحصل على
الكثير، وإن طلبت منها الكثير فإنك إن لم تحصل عليه فلسوف تحصل -
على الأقل - على ما هو أكثر من القليل .. وإن كان هذا الفيلسوف
«البراجماتى» لا يحدثنا كذلك عن الإحباط المرير الذى يعانيه مَنْ يطلب
الكثير فلا ينال إلا ما هو أكثر من القليل ، ولا يحدثنا عن حلة الرضا
عن النفس التى يشعر بها من يجعل أهدافه فى متناول يديه ولا يطلب
إلا ما ترشحه له قدراته وظروفه وإمكانياته .

لكنها روح العصر لدى الكثيرين للأسف ، وهى الروح التى صورها الكاتب المسرحى الأمريكى آرثر ميللر فى مسرحيته « الثمن » وقال فيها : « إن الأمر يبدأ دائماً بأن تطلب لنفسك الكثير ، فتقضى العمر لاهثاً وراءه فى سباق متصل كسباق الفئران المذعورة إلى أهداف متحركة ، تبعد عنها كلما اقتربت منها ، فلا أنت قد حققت ما فقدت روحك وسلامك النفسى من أجل الوصول إليه .. ولا أنت قد قنعت بما حققت ، أو تواضعت بأحلامك لتتناسب مع قدراتك وتستريح .. »

ولعلنى أتخيل الآن ماذا عسى جمهور الكرة أن يقول فى هذه الأيام إذا غضب على لاعب أرهق ناديه بمطالبه الباهظة حقاً .. أتراه يصيح مستنكراً كما صاح فى وجه الشاذلى ورياض : خمسمية يا حرامية ؟ أم أن الأكثر ملاءمة لروح العصر الآن هو أن يهتف قائلاً : نص مليون .. يا مجنون ؟

ولعلنى أيضاً لو خُيرْتُ بين الحالين .. وبين روح تلك الأيام وروحها الآن ، لاخترتُ الأحلام البسيطة ، والسعادة الحقيقية ببلوغ الأهداف قريبة المنال ، ولفضلتُ ألا تتجاوز مطالبى من الحياة مثل هذا « الشلن » المتواضع ، إذا كان الفوز به متاحاً بلا خسائر معنوية أو أخلاقية ، وبغير أن يفقد الإنسان قدرته على السعادة وتذوق طعم الأشياء .. فهل تشاركنى فى ذلك .. أم أن لك رأياً آخر ؟

أرجوك .. أعطيني عمرک

کم « عمرا » یحتاج إلیه الإنسان لکی یتعلم
من أخطائه وتجاربه.. و«یفهم» الحیاة حق
فهمها ویحسن التعامل معها ومع البشر ؟

في تقديرى أنه يحتاج إلى «عمرين» على الأقل أو حيتين ، يتخطى في الأولى منهما في التجربة والخطأ .. ويدفع ثمن أخطائه وعثراته فيُفْجَع على سبيل المثال في صداقة صديق لم يكن يستحق صداقته ، في عدم وفاء شريك لم يحسن هو اختياره ، ويكتشف سوء تقديره أو اختياره في هذه المسألة أو تلك ، ويجرب هذا الطريق فيكتشف أنه لم يخلق له من الأصل ، وإنما لطريق آخر في الحياة .. ثم تنتهى « المرحلة الأولى » بخيرها وشرها في موعدها المقدور.. ويبدأ من جديد رحلة « الحياة الحقيقية » الخالية من الأخطاء والعثرات وسوء التقدير وسوء الاختيار، فلا يكرر خطأ وقع فيه في حياته الأولى ، ولا تفلت منه هفوة لسان ندم عليها أو دفع ثمنها غالياً في « جاهليته » السابقة ، ولا يفقد صديقاً فقدته من قبل بحماقته وقلة خبرته السابقة بالنفس البشرية.. ولا يستشير على نفسه عداء الآخرين باندفاعاته القديمة ورعونته الماضية ، ولا يمضى في طريق لم تكن ترشحه له مؤهلاته وقدراته من الأصل .. ولا يشقى لبلوغ هدف أدرك في «حياته السابقة» أنه لا يستحق أن يشقى الإنسان للوصول إليه على حساب أهداف أخرى أكثر قيمة وأكثر قدرة على تحقيق سعادته الحقيقية .

ويمضى في الحياة مسلحاً بمعرفة ثمينة بنفسه وخبرة كبيرة بالحياة والبشر من حوله .. فيحيا سعيداً آمناً من الأذى والخداع .. والأخطاء

والعثرات .. تحيط برأسه هالة من الحكمة وحسن الإدراك والفهم
الصحيح لكل الأشياء !

أمنية مستحيلة ؟

هى كذلك بالطبع .. لهذا فلقد حلم بها كثيرون من العقلاء والحكماء
وتمنوها لأنفسهم ، فكتب الأديب الإنجليزى الشهير « د . ه .
لورانس » ذات يوم يقول : ليت للإنسان حياتن .. الأولى يرتكب فيها
الأخطاء والحقاقات ، والثانية يتعلم فيها من أخطائه وتجاربه !

وقال الأديب الأسباني المغمور فى رواية « الشطار » للأديب المغربى
محمد شكرى : حين يتقدم بنا العمر فإننا نتمنى أن بدأ كل شىء من
جديد لكى نتعلم من أخطائنا .. ولأن الإنسان الحقيقى هو الذى
يعرف كيف ينتهى وليس كيف يبدأ !

وقال الأديب الأيرلندى الكبير برنارد شو : إنه من المؤسف أننا
حين نبلغ مرحلة الحكمة وتتحقق لنا السيادة على أنفسنا والسيطرة على
أهوائنا ، فإن رحلة العمر تكون قد آذنت بالمغيب ، ولم يتبق لنا الكثير
لكى نستفيد فيه بالحكمة التى اكتسبناها بعد التخطيط الطويل فى التجربة
والخطأ !

وكثيرًا ما نقرأ أو نسمع أحد البارزين في بعض مجالات الحياة يقول :
لو رجعت الأيام لما فعلتُ كذا وكذا .. ولفعلتُ كذا وكذا ..

لكن الأيام لا ترجع أبدًا .. ومياه النهر لا تعود للأسف إلى منابعها ،
وإنما تمضي إلى مصبها في طريق محتوم .

ولم يبق لنا إلا أن نحاول قدر الجهد والطاقة أن نتعلم من أخطائنا
ونحَبِّطنا في التجربة والجهل ببعض حقائق الحياة ، ونستفيد من تجارب
الآخرين ودروس حياتهم ، فكأننا نُضيف أعمارهم إلى أعمارنا
ونُخبراتهم إلى خبراتنا ، ونستعين بعقولهم مع عقولنا على قيادة سفينة
حياتنا في مياه النهر بغير أن تصطدم بالجنادل والصخور ، فلا نكرر
خطأ وقعنا فيه مرتين .. ولا ننخدع بمن سبق له خداعنا من قبل ..
ونؤمن بالحكمة القديمة التي تقول : « إذا خدعني أحد فليسامحه الله ..
أما إذا خدعني مرة أخرى فليسامحني أنا الله ! » .

ونستفيد كذلك من تجارب العمر وتجارب الآخرين في اختيار
الطريق الصحيح لنا في الحياة ، وفي التفرقة بين ما نستطيع إدراكه
وينبغي لنا السعى إليه بكل طاقاتنا ، وبين ما لا نستطيع بلوغه مهما
حاولنا ذلك ، فلا نهدر الجهد والطاقة في نطح صخوره العاتية ، وأن
نعرف كيف نميز بين أهداف الحياة الجديرة حقًا بأن نشقى لبلوغها ،

والأهداف الأخرى التى لا تستحق فى نظر العقلاء الشقاء من أجلها
وإن أغرت غيرنا بها .

منذ فترة زارنى بمكتبى رجل طلب . اقائى ليشتى همومه ، فروى لى
أنه تزوج من زميلته التى أحبها خلال مدة حلة الدراسة فى الجامعة عقب
تخرجهما بعامين ، وأقاما فى مسكن ميسر ، وأنجبا ثلاثة أطفال صغار ،
ثم تطلع إلى تأمين مستقبله ومستقبل أسرته ، فهاجر إلى أرض بعيدة
تاركًا وراءه أسرته فى القاهرة ، وعمل بضع سنوات متصلة بغير
إجازات يرجع خلالها لأسرته ، حتى كَوَّن بعض المدخرات الطيبة ،
وطالبته زوجته بالاكتماء بما أتيح له من أسباب والعودة للاستقرار فى
بلده أو اصطحابها وأطفالها إليه ، لأنها قد ناءت بوحدتها بعيدًا عنه
ومسئوليتها وحدها عن الأسرة ، فلم يستجب لرغبتها .. واندفع فى
سباقه المحموم لجمع الثروة واعدًا إياها بالعودة بعد عامين أو ثلاثة ،
وطالت هجرته حتى كبر الأبناء فى غيابه ، وأصبحوا حين يرجع إليهم
لمدة شهر واحد كل عامين لا يكادون يعرفونه ، فعادت زوجته
الإلحاح عليه بالبقاء مع أسرته بعد أن تحقق له أكثر مما كان يحلم به
لنفسه ، لكن العجلة كانت - كما قال لى - قد دارت ولم يعد يستطيع

إيقافها ، فماتل زوجته فى العودة ، وراح يعدها كل عام بجمع الشمل والعودة لعمله السابق فى مصر إلى أن مضت ١٧ عامًا على هجرته .. وأفاق ذات يوم على زوجته تطلب منه الطلاق بإصرار وتمسك به ، حتى ولو أنهى كل أعماله فى الخارج ورجع للاستقرار مع أسرته ، وفوجئ بأبنائه وقد صاروا شبابًا يؤيدون أمهم فى مطلبها .. لأنهم لم يشعروا بوجوده الحقيقى فى حياتهم .. وفشلت كل محاولاته لإقناعها بالعدول عن مطلبها ، واضطر فى النهاية للاستجابة لرغبتها مرغماً .. وهو يمنى نفسه بأن تراجع نفسها بعد حين ، وعاد إلى مهجره مؤملاً أن ترجع المياه إلى مجاريها بينهما بعد بضعة شهور .. فمضى عامان على الانفصال دون أن تعدل زوجته السابقة عن موقفها منه ، ودون أن ينجح هو فى بعث الدفء فى العلاقة بينه وبين أبنائه .

وبعد أن أنهى رواية قصته سألتنى : ماذا أفدتُ من ثرائى وأعمالى وقد تحطمتُ أسرتى وفقدتُ زوجتى التى أحببتها خلال مرحلة الدراسة ، وأبنائى الذين تصورتُ أننى أجمع هذه الثروة لإسعادهم ؟! ولستُ أذكر بماذا أجبتة وقتها .. لكننى أذكر جيداً أننى وعدتُ بالاتصال بزوجته على غير سابق معرفة ومحاولة التوسط بينهما لإعادة شمل أسرتهما من جديد .. وفعلتُ ما وعدتُ به ، ودار بيننا حوار

طويل، مازلتُ أذكر منه حتى الآن هذه العبارة المؤلمة : « إنه لم يتعلم شيئاً من أخطائه .. فلقد أضاع الحب والأسرة والأبناء من أجل هدف لم نكن نحتاج إليه ، وطالما رجوتُه أن ، « يكتفى » بما حققه منه ويرجع لإنقاذ أسرته من الغرق فلم يتصبح .. ولو رجعتُ إليه الآن فلن يطول العهد حتى يهجرنا مرة أخرى بعد حين ويكرر الخطأ نفسه !

ولم تنجح محاولتي معها للأسف ، لكنني احترمتُ فهمها الصحيح لما يستحق أن يسعى إليه الإنسان من الأهداب .. وما لا يستحق .

فلا شيء يعوض السعادة والأمان .. وسكون القلب إلى جوار من يحب ومن يهيم أمرهم من الأبناء .

ولقد أضفتُ إلى خبرتي بالحياة هذا الدرس الثمين الذي تلامستُ معه عن قرب في هذه القصة الواقعية وغيرها من القصص العديدة التي سمعتها وقرأتها في رسائل المهمومين إلى « بريد الجمعة » .

وتعلمتُ من تجارب الكثيرين التي قرأتها على مدى العمر في مذكراتهم الشخصية وقصص حياتهم ، فتعلمتُ من قراءتي لمذكرات الملك الحسن ملك المغرب التي صدرت بعنوان « ذاكرة ملك » هذا الدرس الحكيم منذ فترة قصيرة ، وهو أنه : ليس من الحكمة أن نضيع الوقت في محاولة إثبات حسن نيتنا تجاه من لا يضمن لنا إلا سوء النية ، لأنه لن يقتنع بذلك مهما فعلنا ، ولأننا لن نستفيد من ذلك شيئاً في

تغيير نيته تجاهنا ، وإنما الأجدى لنا إذا اضطررنا للتعامل معه أن نتجاوز هذه النقطة .. إلى نقطة أخرى عملية هي : ماذا تريد منا ؟ وماذا ستقدم لنا مقابل ذلك ؟

كما تعلمتُ أيضًا هذا الدرس الآخر الثمين من قراءتى لإحدى خطب الزعيم السوفيتى الأسبق « نيكيتا خروشوف » وهو أنه : حتى اللجنة لا ينبغي أن يساق الناس إليها بالعصا .. وإنما بالإقناع .. والحب .. والترغيب !

ذلك أن قهر إرادة الإنسان - ولو بهدف تحقيق الخير والعدل له - لن يحقق له السعادة .. وقد ينفره منها إذا أرغمناه عليها !

وتعلمتُ - أو حاولتُ أن أتعلم - ألا أكون ممن وصفهم المثل الإنجليزى القديم بأنهم مثل بحارة السفن القديمة لا يذكرون الله إلا ساعة الغرق ! وتعلمتُ - أو حاولتُ أن أتعلم - من أبى الفلاسفة سقراط أن ما لا أحتاج إليه لا يساوى عندى شَرْوئى نَقِيرٍ ولو تهافت الآخرون على نيله والحصول عليه ، وبدا فى أنظارهم شيئًا ثمينًا غاليًا !

وتذكرتُ - ومازلت أتذكر كل يوم كلمته - حين دخل متجبرًا حافلًا بالأشياء التى لا يستطيع - لفقره - شراءها أو الحصول عليها .. فتأملها قليلا ثم قال :

.. ما أكثر الأشياء التى لا أحتاج إليها !

وقد اتفق معه فى هذه الكلمة الحكيمة بعد ذلك بقرون القطب
الصوفى الإمام الجنيد حين قال : إن الزهد هو فراغ القلب مما خلت منه
اليد !

وليس فراغ اليد وحدها منه !

وإذا كان الخليفة العباسى المأمون قد قال ذات يوم - وقد كان مغرمًا
بالمحاورات الأدبية والفلسفة والحكمة : ألد الأشياء هو التنزه فى عقول
الآخرين ! فلقد حاولتُ دائمًا أن « أتنزّه » ولو لبضع ساعة كل يوم - *
ومنذ صباى المبكر - فى عقول الآخرين ومؤلفاتهم وخبراتهم وتجاربهم
مع الحياة ، وأنصحك بأن تفعل أنت ذلك أيضًا لتضيف أعمارهم إلى
عمرك ، وخبراتهم إلى خبراتك ، وتجاربهم إلى تجاربك .

فنحن نحتاج - كما قلتُ لك فى البداية - إلى حيتين أو عمريْن على
الأقل لكى نفهم الحياة حق فهمها ، ونحسن التعامل معها ومع مَنْ
حولنا من البشر . وما دمنا لا نستطيع ذلك عمليًا فلنكتفِ إذن
باستعارة « أعمار » الآخرين .. أقصد خبراتهم ودروس حياتهم .

فلقد كان الفيلسوف الألمانى « نيتشه » يقول : إن مَنْ لم ينتفع بخبرة

ثلاثة آلاف سنة ، لم يتجاوز زاده في الحياة خبر يوم .يوم .. أى خبرة يوم
يوم !

ولقد بدأتُ مقالى هذا عازماً أن أحدثك عن كتاب ثمين قرأته منذ
أيام ، يروى فيه عدد من أعلام المفكرين قصص حياتهم وبعض
تجاربهم فى الحياة لتتشارك معاً فى هذه النزهة المفيدة فى عقولهم
وخبراتهم ، فإذا بالحديث يأخذنى بعيداً عن الغرض الذى قصدته ..
وإذا بى أقع فى خطأ عدم تحديد الأهداف بدقة وعدم اتخاذ السبل
المؤدية إليها من أقصر طريق .. فأتعلم من هذا الخطأ درساً جديداً ، كما
أتعلم كل يوم من أخطائى وأخطاء الآخرين .. وأعدُّ نفسى ألا أكرره
مرة أخرى ، وبأن أحدثك عن هذا الكتاب القيم فى حين آخر بإذن الله
بغير شرود عن الهدف .. ولا تحبط بعيداً عنه .. وشكراً .

إِزِّيْكَ .. يَا « اَدُلْعَدِي »

أنت لم تجرّب هذا الإحساس المرير بعد ..
وأرجو لك ألا تجرّبه ..

أن تشعر بأن كل شيء قد أصبح وراءك ..
وليس أمامك .. وأن كل الأشياء الجميلة ،
واللحظات السعيدة ، والأماكن التي شهدت
أجمل الذكريات .. كلها قد أصبحت ماضياً
بعيداً ، ولا سبيل إلى استرجاعه إلا في الخيال ..
وحتى هذا الخيال نفسه قد يعز عليك في
بعض الأحيان أن تستمتع به إلا استمتاعاً
صامتاً تسترجع به الأوقات السعيدة وتتجاوز
مع شخوصها وذاكرياتها بغير كلام ..

لأن مَنْ حولك لا يدرون بها ، ولم يعاصروها معك ، ولا يعرفون
شخصها . . فإذا تحدثت إليهم عنها لم تستشعر فيهم حرارة التجاوب
معها . . ولم تجد لما تتحدث عنه الصدى الذى تتوقعه منهم ، فتنطوى
على ذكرياتك وتعايشها وحدك ، وتهرب إليها كلما ضاقت نفسك
بغربتك النفسية والمكانية . . وبوحدتك وبعيد الأحباء والأصدقاء . .
فتصبح بذلك كمن قال عنه الأديب المغربى المعاصر محمد شكرى فى
روايته الشهيرة «الشاطر» : « لم يعد يستمد بهجة الحياة إلا من
الماضى ! » ، فإذا التقيت بالصدفة بشخص يرتبط بهذا الماضى السعيد
بشكل أو بآخر تشبثت به كما يتشبث الغريق بطوق النجاة ، وحاولت أن
تستريح معه عطر تلك الأيام الخالية . . والذكريات السعيدة . .
والأماكن الجميلة التى ارتبطت عندك دائماً بأجمل فترات العمر !

وأحسب أن ذلك المحامى الفرنسى العجوز لذى التقيت به فى
باريس منذ فترة قصيرة قد أحس بكل هذه المشاعر الأشجان حين التقى
بى ووجد عندى بعض الصدى لذكرياته الجميلة عن القاهرة ،
وشوارعها وملاهيها ومغانيها القديمة !

فلقد كنت على موعد مع بعض الأصدقاء من مطعم مصرى هناك
بدعوة من سيدة مصرية تقيم بباريس منذ ٢٥ عامًا وتملك فيها محلين
تجاريين ، وجاءت السيدة المصرية مصحوبة برجل فرنسى فى الثامنة
والسبعين من عمره ، قدّمته إلينا كمحامىها الذى يتولى شئونها القانونية
هناك ، وحيانا الرجل بالفرنسية بحرارة بدت لى غير مألوفة بالنسبة



لطبائع الفرنسيين مع الأغراب الذين يلتقون بهم لأول مرة ، وجمعتنا المائدة ، ففوجئتُ بالرجل يقول لى بالعربية باسمًا : « إزيك يا ادلعدي » . . . وضحكتُ للتعبير الشعبى المصرى الذى كاد ينقرض الآن على ألسنة النساء فى الأحياء الشعبية بالقاهرة ، وقدرتُ أن أحد المصريين المقيمين بباريس ربما يكون قد حَفَظَهُ هذا التعبير الدارج على سبيل المزاح . . لكنَّ تقديرى خاب حين وجدتُ الرجل ينطلق فى الحديث بعد ذلك بالعامية المصرية القديمة التى اختفت بعض مفرداتها الآن من الألسنة ، ويروى لنا عن حياته وذكرياته السعيدة فى مصر والقاهرة وشوارعها ومقاهيها وملاهيها القديمة ، واكتشفتُ أن الرجل قد تعمد أن يحينى بهذه العبارة الدارجة ليلفت نظرى إلى أنه « ابن بلد » مصرى ، يفهم لغة أولاد البلد ويتكلم بها لأنه ولد بمصر وتعلم بها ، حتى أصبح محاميًا لدى المحاكم المختلطة القديمة التى كانت تختص بالنظر فى القضايا والنزاعات بين الأجانب بعضهم وبعض ، وبينهم وبين المصريين قبل إلغاء الامتيازات الأجنبية فى مصر وتوحيد القضاء . . كما عرفتُ أيضًا أنه قد عاش بمصر حتى سن السابعة والثلاثين ، ثم أُخْرِجَ منها حين وقع العدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ ، وقامت السلطات المصرية بترحيل رعايا الدول المعتدية ، وكان هو يحتفظ بالجنسية الفرنسية تبعًا لأبيه ولم يتنبه لضرورة الحصول على الجنسية المصرية إلا بعد فوات الأوان ، فوجد نفسه بين يوم وليلة على ظهر باخرة متجهة إلى مارسيليا ، ووجد نفسه أيضًا مطالبًا بأن يبدأ حياته فى فرنسا من الصفر ، بعد أن كان فى مصر من علية القوم وأبناء الذوات ، فكافح كفاحًا مريرًا فى مجتمع قاس

لكى يجد لنفسه مكاناً فيه ، وكلما ضاقت نفسه بوحده ومعاناته اتجه
بذهنه إلى مصر التى كان يعيش فيها حياة مرفهة سعيدة ، فيقيم فى فيلا
واسعة بمصر الجديدة ويظفر باحترام المجتمع ، وحنان دادة فضيلة التى
ربته وأرضعته ويعتبرها امه الثانية ، وعطف عم صالح جناينى الفيلا
الذى كان يحمله على كتفه ويتجول به فى شوارع مصر الجديدة ويروى له
الحكايات الجميلة حتى ينام بين يديه فى الحديقة ، ويستمتع بأوقاته
وحياته فى مغانى القاهرة القديمة . . وأماكنها الجميلة كأوبرج الأهرام
وكازينو الحلمية بالاس وكازينو سان سوسى ، وروف فندق كارلتون
ومقهى الفيشاوى القديم . . ومطعم خريستو بالهرم .

وتدقق الرجل فى حديث الذكريات الجميلة عن مصر والقاهرة . .
وكلما وجد لَدَيْهِ علماً بالأماكن التى يتحدث عنها لمعت عيناه فى اهتمام
شديد وسألنى عنها : أما زالت موجودة كما هى ؟ ويسعد حين أجيبه
بالإيجاب ، ويأسف حين أقول له إن بعضها قد زال من الوجود وحلت
مكانه عمارات حديثة أو محلات جديدة .

واقترح الرجل قلوبنا بحديثه الحار عن مصر وحبه الصادق لها ،
وأدهشنى أنه لم يرجع إليها بعد ذلك قط خلال الواحد والأربعين سنة
الماضية . . ووجدتُ تفسيراً لذلك حين قال لى إن معظم أهله قد تفرقوا
فوق الكرة الأرضية ، وأنه لم يعد له مَنْ يرجع إليه فى مصر بعد وفاة أبويه
. . كما أن معركة الحياة فى فرنسا قد شغلته بلقمة العيش والكفاح المرير
عن كل شىء حتى تسرب العمر من بين يديه ، ولم تبقَ له إلا الذكريات
التي أعدناها نحن إلى ذاكرته بقلائه بنا !

وكأنها قد عثر الرجل على ضالته فينا بعد طول الغياب . . فلم يتوقف
عن الحديث لحظة ، ولم يدغ شيئاً في مصر لم يتحدث عنه ، فحتى
النكات المصرية القديمة رواها لنا وأضحكنا عليها بعاميته المصرية التي
بدت غريبة بعض الشيء على آذاننا لانقراض بعض مفرداتها الآن ،
وحتى عبارات الغزل التي كان أولاد البلد يحثون بها جمال بنت البلد
العابرة بالطريق تتهادى في ملاءتها اللف . . مازال يذكرها ويردها
ويضحك لها بسعادة ويسألني عنها بحنين : أما زالت الملاءة اللف
موجودة في القاهرة ؟ ويأسف حين أجيبه بأنها قد انقرضت منها أو
كادت .

وانتهت السهرة الجميلة وليس في ذاكرتنا سوى هذا المحامي الفرنسي
العجوز الذي يُجَسَّدُ لنا صورة « الأفندي المصرى » في الأربعينات
والخمسينات بحكاياته ولهجته وعباراته . .

وبعد يومين اتصلت بى السيدة المصرية لتبلغنى بأن المسيو « ليون »
يدعونى وأصدقائى إلى العشاء فى بيته ويلح فى ذلك إلحاحاً شديداً ،
وأنه سوف يتصل بى لهذا الهدف ، فلم تمض لحظات حتى اتصل بى
مؤكدًا الدعوة .

وفى الموعد المحدد ذهبنا إلى مسكنه فى أحد أطراف باريس ،
فاستقبلنا وهو يتألق بدماء الحيوية والنشاط والأناقة الفرنسية . .
ووجدناه قد أعد لنا بنفسه مائدة « حافلة » حرص على أن يخصص منها
بطبق من الطعام النباتى الخالى من اللحوم أو الدواجن أو الأسماك ،
احتراماً « لنباتيتى » الوليدة منذ حوالى العام ! وراح يتنقل بيننا فى نشاط

يداعب هذا .. ويشاكس ذاك ، ثم اتجه إلى الكاسيت ووضع فيه شريطًا ، فإذا بأنغام أغنية مصرية قديمة كانت شائعة في الملاهى الليلية منذ حوالى ٥٠ عامًا تنساب في جو المكان وتلقى عليه ظلالاً شفيفة من شجن الذكرى .. إنها أغنية « لامونى الناس على حبى .. لامونى الناس .. وكان الذنب مش ذنبى .. ومال الناس ؟ » ، فمن أين حصل على هذه الأغنية القديمة ؟ وكيف احتفظ بها كل هذه السنين ؟ ومن أين حصل أيضًا على هذه الأغاني الجميلة لأم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم حافظ ؟

أما حين جلسنا إلى المائدة فلقد انطلق على سجيته وفجر الضحكات الصاخبة من أعماقنا وهو يروى لنا ذكرياته الطريفة عن سن الشباب في مصر وأصدقاء الزمن القديم وحكاياتهم وطرائفهم .

وانقضى الوقت سريعًا فلم نكد نشعر بمروره ، واقتربت الساعة من الواحدة صباحًا ، وحن وقت الرحيل ، فشكرتُ الداعى بكلمة قصيرة ورجوتُ له الصحة والسعادة إلى أن نلتقى مرة أخرى بباريس في الزيارة القادمة بإذن الله .. فإذا بملامح وجه الرجل الضاحكة تتجمد للحظات ثم تتحول تدريجيًا إلى ملامح جادة .. ثم حزينة .. وإذا به يقول لنا إننا لا ندرى كم أسعدناه بهذا الوقت القصير الذى أمضيته معه .. وأعدناه به إلى الحياة .. وأشعرناه بأنه ليس وحيدًا وغريبًا في مجتمع « غريب » .. لكن لأن لكل شىء نهاية دائمًا .. فها نحن سوف نعود

لبلادنا وأهلنا وأصدقائنا . . ويبقى هو وحيداً بلا أهل ولا أصدقاء ولا
ذكرىات !

ثم طفرت دمعتان حائرتان من عينيه . . فأضفتا على وجهه طابعاً من
الحزن النبيل ، فأنحفرت صورته في ذاكرتى ومست قلبى وقلوب
الحاضرين معى ، وحل الصمت الثقيل على المكان للحظات .

لقد أضحكنا الرجل طوال السهرة حتى طفر الدمع من عيوننا في
بعض اللحظات . . وها هو يكيئا في ختامها أيضاً حتى يتفرق الدمع
في عيون الحاضرين !

وودعناه وداعاً حاراً لم يفلح خلاله أحدنا في أن يعيد الرجل إلى مرجه
السابق ، وغادرنا الشقة وصدورنا تحيش بالإشفاق عليه ، فما أن انفردت
بالصديقين المصريين المقيمين بباريس واللذين رافقانى إلى هذه السهرة ،
حتى طلبتُ منهما فيما يشبه الرجاء ألا يدعا هذا الرجل لوحده طويلاً
بعد عودتى لمصر ، وبأن يُشِعِراه بمودتهما له واهتمامهما بأمره ،
فيدعواه ولو مرة كل شهر إلى اللقاء بهما وبأصدقائهما من المصريين
المقيمين هناك ، ووعدنى الصديقان خيراً . . وأرجو أن يفيا بالوعد .

واسترجعتُ خلال رحلة العودة في ليل باريس وجه الرجل في ختام
السهرة . . وحزنه النبيل . . والدمعتين المتجمدتين في عينيه . .
فتذكرتُ ما رواه العالم المؤرخ الأديب الدكتور « أحمد أمين » في كتابه الممتع
« حياتى » حين سافر إلى إسطنبول مع زميله المؤرخ « عبد الحميد

العبادى « فى مهمة علمية لدراسة بعض المخطوطات العربية القديمة فى مكتبات المدينة التركية ، فحرص أحمد أمين على البحث عن أستاذه القديم بمدرسة القضاء الشرعى « على بك فوزى » ، الذى هاجر من مصر قبل عشرين عامًا واستقر بإسطنبول وحيدًا بلا أهل ولا زوجة ولا أبناء ، وكيف سعد الرجل سعادة طاغية بلقاء تلميذه القديم وزميله ، واستنجزهما الوعد بأن يلتقيا به كل يوم خلال وجودهما فى إسطنبول ، وكيف أنس الرجل لهما ووجد فيهما مهربًا له من وحشته ووحدته . ثم حانت لحظة الرحيل ، فزاراه للاستئذان فى السفر عائدتين لبلدهما ، فإذا بالدمع يطفر من عين الرجل . . ويقول لهما : أنتم تستأذنانى فى فقد حياتى بعد أن كنت قد استرجعتها معكما !

وأحسب أن هذا الإحساس الأليم نفسه هو ما كان يساور المحامى الفرنسى العجوز ونحن نستأذنه فى الانصراف بعد سهرة سعيدة عاش خلالها فى أجواء ماضٍ جميل ذهب وانقضى . . وهيهات له أن يعود إلا فى شجن الذكرى .

لقد أصبح الرجل كبطل رواية محمد شكرى وكثيرين غيره ممن أوغل بهم قطار العمر وخلت حياتهم الحاضرة من أسباب البهجة والإيناس ، فلم يعودوا يستمدون بهجة الحياة إلا من الذكرى وأصدقاء الماضى البعيد . .

ألم أقل لك من البداية إنه إحساس مرير . . أرجو ألا تجربه ذات يوم؟

الرقص بالعصا

علمنى صديقى المحامى الفرنسى الذى
يقترب من سن الثمانين درسا جديداً من
دروس الحياة !

فلقد رجعتُ إلى مصر وكتبت عنه المقال
السابق بمجلة الشباب بعنوان « إزيك يا
ادلعدى » ، إشارة إلى العبارة التى استقبلنى بها
حين تعرفتُ به لكى يقنعنى بأنه مازال يتذكر
العبارات العامية المصرية ولغة أولاد البلد .

ثم جرفتنى مشاغل الحياة ، فلم أدر ذات يوم إلا وهذا المحامى
الفرنسى يتصل بيئى فى غيابى ويبادر ابنتى - التى ردت عليه - بحديث
ضحك بالعامية المصرية يطلبُ منها فى نهايته أن تشكرنى على ما كتبتهُ
عنه ، لأنه قد قرأ « المكال » فى باريس وسعد به كثيرا ، وعلمتُ من
الأصدقاء المشتركين أنه قام بتصويره ٣٠ صورة وزَّعها على أصدقائه
ومعارفه ، مؤكداً لهم أنه المقصود بهذا المقال .

ثم مضتْ شهور ورجعتِ السيدة المصرية التى عرَّفتنى به فى زيارة
لبلدها ، فإذا بها تحمل إلىَّ منه خطاباً قصيراً باللغة العربية يثنى فيه
أشواقه ويسأل متى يتجدد اللقاء ، ومع الخطاب هدية . . تأملتها
طويلاً وضحكتُ لها كثيراً ، فلقد أرسل إلىَّ قميصاً من اللون الأخضر
الزاهى . . و « كرافت » خضراء اللون زاهية . . كأنما يقول لى بهديته :
إنه مازال شاباً يَغْضُ النظر عن حكم السنين ، ويجب أن يكون
الأصدقاء شباباً مثله !

ولم أتعجب لذلك كثيراً . . فهو يرتدى مثل هذه الألوان الزاهية . .
ويسير على قدميه بنشاط وحيوية . . ويفتح أزرار قميصه عن صدره
حتى الزر الثالث . . ويتعامل مع الحياة بروح الشباب ، وليس بمنطق
الكهول أمثالنا !

واحتفظتُ بهديته رمزاً للشباب الضائع ولم أفكر بالطبع فى استعمالها !
ثم سافرتُ إلى باريس فى الشهر الماضى ، فحملتُ إليه هدية رمزية

صغيرة من مصر كان من بينها « سلايدز » لمشاهد متنوعة من مصر
التسعينيات ليقارن بينها وبين مصر الأربعينيات التي كان يعرفها ،
وصورة من العدد الأول من جريدة الأهرام الصادر عام ١٨٧٦ ، سَعِدَ
بها كثيراً واعتبرها « كنزاً » ثميناً . .

ثم دعانى للعشاء في مسكنه مع شلة الأصدقاء . . وكلف سيدة
فرنسية نباتية بإعداد مائدة من الطعام النباتي البحت إكراماً لى ،
 واجتمعنا في مسكنه . . فقدم لى صديقين من أصدقائه القدامى ، كانا
يعيشان مثله في مصر قبل أن يهاجرا منها في الخمسينيات ، يبلغ أحدهما
الثانية والثمانين من عمره . . وتبارى الثلاثة في الحديث معنا عن مصر
وأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب . . وتفوق الصديق الذى تخطى الثمانين
من عمره في الاستشهاد خلال حديثه بالأمثال العامية المصرية التى يحفظ
الكثير منها . . حتى « حذرنى » صديقى المحامى الفرنسى صاحكاً منه
. . قائلاً : إن هذا الرجل إذا حيته بتحية فإنه يُجيبك على تحيتك بمثل
عامى من محفوظاته القديمة ، أو بيت من الشعر العربى القديم الذى
مازال يحفظه ! وروى الصديق الثالث أنه كان يتفوق على نظرائه من
تلامذة الفصل فى المرحلة الثانوية فى حفظ الشعر العربى ، حتى تعجب
لذلك مدرس اللغة العربية ولام زملاءه قائلاً : أليس من العيب عليكم
أن يحفظ هذا « الأجنبى » ما تعجزون أنتم عن حفظه من الشعر العربى ؟
فيجيبه التلاميذ ضاحكين : أصله خواجه لثيم يا بيه !

وانتهت السهرة بين حديث الذكريات الممتع . . والمقارنة بين صوت

عبد الوهاب في شبابه ، وصوته في مرحلة الكهولة ، وبين أغاني أم كلثوم القديمة في بداية حياتها وأغانيها في المرحلة الأخيرة من عمرها .

وأبلغني المحامي الفرنسي الصديق بأنه قد حزم أمره أخيراً وقرر أن يرجع لزيارة مصر في سبتمبر القادم ليرى الأرض التي عاش فيها طفولته وصباه وشبابه لأول مرة بعد ٤٢ عامًا من الغياب عنها ! وقال لي : إن أول عنوان سوف يبحث عنه في القاهرة هو : ٥٥ شارع العباسية ، حيث كان يقع بيت الأسرة بفنائه الترابي الواسع ، وحيث كان يلعب الكرة مع قرنائهم من الصغار ، وإن كان يعرف بالطبع أن البيت قد تحول إلى مدرسة ابتدائية أو ما يشبه ذلك . . وأما بقية العناوين . . فهي عناوين من بقي على قيد الحياة من أقاربه ورفاق شبابه .

وتكرر مشهد الوداع الذي تتندى فيه عيناه بالدمع النيل عند الفراق ، فكأنها يشعر فيه بأنه يفارق رموز ذكرياته الجميلة في مصر وصباه وشبابه فيها . . وغادرت باريس وأنا أستعيد في مخيلتي الحديث الذي اعتبرته درسًا جديدًا من دروس الحياة التي قد ينتقضي العمر كله بغير أن يستوعب المرء كل خبرتها . .

فلقد روى لي هذا المحامي الفرنسي - الذي يبلغ من العمر الآن ٧٩ عامًا - أنه يقضى نهاره في مكتبه يمارس أعماله القانونية . . ويتعامل مع عملائه ومساعديه بجدية وحزم ، ثم يرجع إلى مسكنه في الخامسة والنصف مساءً ، فيضع حقيبة أوراقه في مكانها التقليدي ، ويقضى ساعتين كاملتين في سماع الموسيقى والأغاني المصرية القديمة قبل أن

يتناول عشاءه في السابعة والنصف ، ثم يجلس أمام التليفزيون لي شاهد
نشرة أخبار الثامنة التي يحرص معظم الفرنسيين على متابعتها ، ويتابع
بعدها بعض البرامج الأخرى لمدة ساعتين أخريين ، ويدخل غرفة نومه
في العاشرة ، ويستسلم للنوم على أنغام الموسيقى الهادئة . . ويصحو في
السادسة صباحًا لبدأ يومًا جديدًا من حياته مفعماً بالنشاط والحيوية
والإقبال على الحياة !

وأما « الدرس » فيكمن في الساعتين اللتين يقضيها في سماع الموسيقى
والأغاني المصرية القديمة . . إذ إنه يضع في المسجل شريطًا لا أدرى
كيف استطاع الحصول عليه في باريس ، يتضمن عزفًا بالمزمار البلدى
لبعض القطع الموسيقية الشعبية التي تصاحب عادة رقص الخيل في مصر
. . ويستمع إليه أكثر من مرة ، وقد يستخفه الطرب خلال ذلك فيرقص
على أنغامه بالعصا وهو وحيد في مسكنه ، وليس مُهِمًّا أن يشاهده الجيران
من النافذة المفتوحة وهو يرقص رافعًا العصا على طريقة أولاد البلد . .
ولا أن يظنوا به الجنون . . وإنما المهم هو أن يفرغ شحنة التوتر التي
تجمعت داخله خلال يوم العمل الطويل ، وأن يشعر بالابتهاج
والاستمتاع بالحياة خلال هاتين الساعتين قبل أن يجلس إلى مائدة العشاء

وبعد وجبة المزمار البلدى والرقص بالعصا يأتي دور الطرب
الأصيل ، فيسمع أغنية أم كلثوم القديمة « أنا في انتظارك » . . أو كما
يسمونها « أنا في الانتظار » ، ويطرب كثيرًا وقد يصفق وحيدًا بين

المقاطع . . أو يصيح قائلاً : « الله يا ست » ، أو « عَظْمَة على عظمة
على عظمة » . . كما كان يردد جمهور « كوكب الشرق » عند استحسانهم
لغنائها !

ولقد روى لى صديقى المحامى الفرنسى ذلك ، فَوَشَّتْ مَلاحى - فيما
يبدو - بما اعتبره عدم تصديق لما يرويه ، فغادر غرفة المعيشة ليضع
شريط المزمار البلدى فى المسجل . . ثم غاب فى غرفة نومه للحظات ،
ورجع حاملاً عصا كتلك التى يستعملها راقصو الفنون الشعبية ،
وتَرَقَّبَ بداية معزوفةٍ جديدةٍ من الشريط ثم راح يتمايل على أنغامها
باستمتاع شديد شاهراً العصا ، حتى أتم الرقصة كاملة وسط ضحكاتنا
. . وتصفيقنا . . وإعجابنا بروحه الشابة وقلبه الطروب !

ثم قال لنا فى النهاية : إنه يستعين بهاتين الساعتين من الطرب
والموسيقى على وحدته ، وجفاف العمل ، وتوترات الحياة المختلفة !
وأيدته بحماس فى فلسفته الخاصة هذه فى الحياة ، وتذكرتُ كلمة
الشاعر الألمانى « نيتشه » التى تقول : إن الإنسان فى وحدته أقرب ما
يكون إلى الجنون !

وتمنيتُ لو استطاع كل إنسان أن يمارس فى حياته الخاصة بعض هذا
الجنون العاقل الذى يغسل الأحزان ، ويجدد الحيوية ، ويغرس البهجة
فى الروح المتجهمة ولا يضر أحداً ! . . فهو « جنون مفيد » يعين الإنسان
على همومه . . ويساعده على الابتهاج بالحياة بغير أن يقترب إثماً أو
يرتكب معصية .



لن أركب السفينة

تستطيع أن تغنى للعالم وتبتهج بها رى
كل الأشياء من حولك جميلة وواعدة ..

وتستطيع أيضا أن تكره الدنيا وتكتبها
ولا ترى فيها إلا كل ما هو ردىء ومجرب
وباعث على التشاؤم !

والدنيا هى الدنيا فى الحتين ، وأنت هو
أنت فى حال الابتهاج بها ، وعل الاكتاب منها
. لكن جهاز الاستقبال الداخلى عندك هو الذى
تغيرت « شفرته » فتغير تأثيرها وتجاوبك
معه !

وهذه حقيقة نفسية عرفها الحكماء منذ قديم الزمان ، وفسرها علماء النفس في العصر الحديث وبرروها ، ففي تاريخ الفلسفة الإغريقية حكاية معروفة عن فيلسوفين هما : هيروقليطس وديموقريطس ، كانا ينظران إلى سخافات الناس فيختلف تأثر كل منهما بها ، فيرى فيها الأول سبباً للضحك من عقول البعض وسماجتهم ، ويرى فيها الثاني مبرراً لأن يحزن لحال البشر ويكتئب له .

فكانا هيروقليطس ينظر إلى الحياة بعين التفاؤل ، ويرى أخطاء الناس في حقّه وحق الآخرين تافهة ولا تستحق إلا الضحك من تفاهة أصحائها ، وكان ديموقريطس ينظر إليها بعين التشاؤم ، فيراها مأساوية وتستحق البكاء من أجلها !

والحق أن معظم ما يواجهه الإنسان في حياته اليومية من مفارقات ومواقف ، يستطيع إذا شاء أن يحزن له ويكتئب . . . ويستطيع كذلك أن يضحك منه ويتعالى فوقه ، وهو يكرر بذلك مثال الدلوين الشهيرين في القصة القديمة التي تحكى أن دلوين كانا مربوطين بحبل ومعلقين على بكرّة فوق بئر ، فينزل أحدهما فارغاً وهو يراقص كأنه يضحك متفائلاً ، ويصعد الآخر ممتلئاً ويفيض منه الماء كأنه يبكي ، والتقى الدلوان في منتصف الطريق ، فسأل الدلو الراقص زميله الباكي :

- لماذا تبكى ؟

فأجابه : وكيف لا أبكى وأنا أحمل الماء الثقيل بصعوبة وأصعد إلى أعلى ، فيعيدنى صاحبي إلى ظلام البئر من جديد !!

ثم سأل الدلو الباكي زميله : وأنت لماذا تتراقص ؟

فأجابه : وكيف لا أتراقص وأنا أنزل إلى قاع البئر فأمتلىء بالماء العذب الصافي ، وأصعد لأعلى فأستمتع بالضوء والشمس من جديد !! وهكذا نحن جميعًا . . منا من يكرر مثال الدلو الراقص ، ومنا من يكرر مثال الدلو الباكي المتشائم . .

وفي أمريكا تنتشر الآن كتب مدرسة جديدة في التأليف ، اسمها مدرسة « الدافعية » ، وهي كتب يحاول مؤلفوها أن يحركوا دوافع الحياة والتقدم في داخلك ، وأن يعلموك كيف تحتفظ بشمسك الداخلية ساطعة طوال العمر ، وكيف تستثمر حياتك وقدراتك وأوقاتك أفضل استثمار . . وكيف تستمتع بجمال الأشياء والعلاقات الإنسانية . . وكيف تُحسِّن من طريقة تفاعلِكَ مع الحياة وتزيد من جرعة الأمل والتفاؤل في وجدانك ، وهي كتب تُلَقَّى الآن رواجًا كبيرًا بين القراء من الشباب والكهول على حد سواء . . ولمؤلفيها أتباع وأنصار يقرأون كتبهم ويشهدون محاضراتهم ويطبقون إرشاداتهم لتحسين مستوى تفاعلهم مع الحياة ، ويستمعون إلى شرائط تعليماتهم بصفة يومية وفي كل موقف يواجهونه ، وهي إرشادات تتراوح ما بين كيفية تحسين القدرات في العمل . . إلى كيفية التنفس بعمق خلال أوقات الراحة . . وحتى كيفية تعلم الاسترخاء التام في البيت بين فترات النشاط ، وكيفية النوم بعمق في الليل ، وكيفية الاستمتاع بأوقات الفراغ . . وكيفية إدارة علاقاتك

الشخصية والاستمتاع بالصدقة والزمانة في العمل ، وفي البيت ، وفي
الحى الذى تقيم فيه . .

وليس من الغريب أن تجد رجلاً في السبعين من عمره يستمع إلى
شريط لأحد مؤلفي هذه الكتب لكى يتبع إرشاداته حول ما ينبغى عليه
أن يفعله إذا زار مثلاً ابنه المتزوج في بيته وبين أسرته الصغيرة ، أو إذا
«هَجَرَتْهُ» صديقته وتركته للوحدة والفراغ ! فالجميع كباراً وصغاراً سواءً
أمام الحاجة إلى تعلم فن الحياة السعيدة . . وأمام الحاجة لمن يرشدهم
إلى كيفية اكتشاف أنفسهم ومهاراتهم الاجتماعية ، وكيفية تأجيج
دوافعهم الذاتية للاستمتاع بالحياة .

وقديماً قال الأديب الفرنسى الراحل « ألبير كامى » : إنه من بين كل
العلوم والفنون ، لم يجد « فناً » أصعب فى تعلمه من فن الحياة .

ومن نصائح خبراء الحياة هؤلاء لك : أن تتعلق دائماً بالأمل فى الغد
الأفضل ولو كان عمرك يقترب من المائة ، وأن تؤمن مع الفيلسوف
الألمانى المتفائل « ليبنتز » بأن هذا « العالم » هو أفضل عالم يحتمل أن
يكون موجوداً فى الكون كله ، حتى ولو ساءنا منه ما نراه فيه من بعض
صور الشر والظلم ، وألا تضعف أمام بعض صور الشر فى الحياة فتقول
مع أحد أبطال رواية « كانديد » للمفكر الفرنسى فولتير :

- إذا كان هذا هو حال أفضل عالم فى الكون ، فكيف يكون إذن حال
« العوالم » الأخرى ؟

الذى ساعده كثيراً من قبل ، ويتهمه بالغرور والتعالى وضحالة المرهبة الأدبية .

ودهش الصديق الأديب لأن أرفض كاتباً لمثل هذا السبب غير الشخصى ، خصوصاً وأنه لم تكن تربطنى وقتها علاقة حميمة بالروائى المقصود ، ثم قال لى : إن « فلاناً » قد ساعه على ما فعل وتفهم ظروفه النفسية المعقدة التى دفعته لذلك .

فأجبتُه على الفور : لكنى لم « أساعه » بَعْدُ على هذا الجحود الإنسانى وهذا الغدر بصديقه ، ولستُ أعتذر عن عدم قبوله للأسباب الأخلاقية فقط . . وإنما لدى أيضاً أسباب « أنانية » ، فلست أريد أن ينضم إلى كُتّاب مجلة الشباب هذا الكاتب ، فأضطر للتعامل معه . . ويدخل بذلك دائرة تنفسى ، فلا أنجو مهما فعلتُ معه من سهم من سهام نفسه المظلمة ذات يوم ، ولهذا فإنى أشكرك على الاقتراح وأعتذر عن عدم استطاعتى تنفيذه !

ومن هنا تأتى أهمية ألا تعرف وألا تقترب إلا من أصحاب القيم الأخلاقية والإنسانية والدينية ، وألا تسمح لغيرهم باختراق أسوارك النفسية والشخصية . . فمعظم أسباب النظرة التشاؤمية إلى الحياة يكمن وراءها أشخاص وسلوكيات ، ومواقف غدر وخسة وجحود من هذا النوع .

وهذا النوع من البشر لا أحب أن أركب معه « السفينة » ولو كان فيها سبيل النجاة الوحيد من الغرق !

ولهذا أيضًا ينصحك خبراء الحياة بأن تعرف أنت أيضًا أهمية القيم في حياتك ، لتكون صديقًا غاليًا على الآخرين ، وأن تختار أصدقاءك في البداية على أساسها ، كما ينصحونك بأن تؤمن مع العقلاء وذوى القلوب الحكيمة بأن في الحياة أشياء كثيرة ثمينة لا تُشترى بالمال ، ولا تعوّضها كل ثروات الأرض .. كالصحة والسعادة .. والصداقة المخلصة ، والعشرة الجميلة ، والاطمئنان النفسى وراحة القلب والضمير .

ويقولون لك أيضًا : إن العمل الشاق لا يقضى على الصحة أو الشباب كما يتوهم الكسالى والمتبطلون ، بل إن العكس هو الصحيح ، لأن قوة الخلق والابتكار لدى الإنسان تبدأ غالبًا بعد الأربعين ، وأنه إذا كان جسم الإنسان يبدأ في التراجع بعد الأربعين فإن عقله لا يهرم ولا يشيخ ، وإنما يزداد توهجًا إذا حافظ على اهتمامه بالحياة من حوله ، وحرص دائمًا على أن يجعل لنفسه في كل مرحلة من مراحل العمر هدفًا صغيرًا يسعى لتحقيقه ، ثم ينتقل من بعده إلى هدف آخر قريب ، فالشيخوخة الحقيقية هي في الإحساس المدمر بأن العمر قد انقضى ومات الأمل .. وضاعت الأهداف والغايات والاهتمامات ، وليست في أى شيء آخر .. ولقد عرفتُ رجلًا فاضلاً كان موظفًا حكوميًا كبيرًا قبل إحالته للمعاش منذ ٢٨ عامًا ، يقضى أوقاته في القراءة والبحث والكتابة بالرغم من أنه لم يكن في يوم من الأيام كاتبًا ولا باحثًا ، لكنه أراد أن يحافظ على توهج الشمس الداخلية لديه ، فخلق لنفسه هذا الاهتمام

الجديد وراح يقرأ ويبحث ويكتب حتى ولو لم يقرأ أحد ما كتبه .
وقد فاجأني منذ ست سنوات بدراسة من ٣٠٠ صفحة كتبها بيده
وبخط جميل مرتب عن مشاكل الأسرة المصرية من خلال رسائل بريد
الجمعة في فترة زمنية محددة ، وتفضل بزيارتي مهديًا إلى هذه الدراسة
القيمة ، فكان إعجابي بحيوية الرجل وحسن اختياره لما يشغل به فراغه
لا يقل عن إعجابي بدراسته القيمة المفيدة . وقد طبع الأهرام خمسمائة
نسخة من دراسته هذه ليهدىها لمكتبات كليات الإعلام والدور الصحفية
والمهتمين بهذه الدراسات ، وغاب عنى الرجل الفاضل عامين ثم رجع
إلى بدراسة أخرى في ٣٠٠ صفحة عن بريد الأهرام اليومي وتيارات الرأي
العام التي يعكسها خلال فترة محددة ، ثم بدراسة ثالثة ورابعة ، حتى
بلغ مجموع صفحات دراساته هذه ١٤٠٠ صفحة ، كتبها كلها بخط
اليد حتى الآن ، ومازال الرجل الفاضل يقرأ ويبحث ويكتب . . . متعه
الله بالصحة .

وهكذا تستطيع أنت أيضًا أن تفعل وأن تخلق لنفسك الاهتمامات
الجديدة التي تناسب كل مرحلة من مراحل عمرك ، وتستطيع أيضًا أن
تحتفظ بحرارة العواطف حتى اللحظة الأخيرة من مسرحية الحياة ، وأن
تكون قادرًا على الإحساس بالمشاعر الرومانسية الجميلة والمشاعر
الإنسانية وتذوق الجمال في كل الأشياء .

فإن لم تفعل ذلك ، واستسلمت لليأس والضغط والتشاؤم ،

وفضلت - كما يفعل البعض - أن تعذب نفسك بكل الأشياء بلا مبرر ،
فلسوف أقول لك ما قاله هذا المؤلف الأمريكي علم لسان إحدى
شخصياته الروائية لإنسان مهموم بأمره دائماً بلا أسباب جدية :

- لماذا تُعذب نفسك بلا مبرر . . والحياة لن تتأخر عن القيام بهذه
المهمة أفضل منك حين توجد الأسباب الحقيقية للتعاسة والعذاب ؟!

صدفة سعيدة

المثل العربى يقول : لا يُغنى حَذَرٌ مِنْ
قَدَرٍ.

والحكمة العربية القديمة تقول : من
مأمنه يُؤْتَى الحَذَرُ !

والمثل العامى المصرى يتوعد من يغالى فى
الخوف من «العفريت» بأن يظهر هذا
العفريت له وحده دون غيره من البشر الذين
لا يتوجسون كل هذا التوجس منه !

وقد تذكرتُ كل ذلك ذات صباح وأنا في مطار إحدى المدن الأوروبية
أستعد لركوب الطائرة عائداً إلى بلدي بعد أسبوعين قضيتها فيها . .
فلقد تحسبتُ طوال وجودي في هذه المدينة لشيء بذاته وحرصت على
تفاديه بكل السبل على مدى أسبوعين ، فشاء القدر أن يذكرني بحكمته
في اللحظة الأخيرة !

وأصل الحكاية أن لي ثروة ثمينة من الأصدقاء الحميمين الذين يقيمون
خارج مصر ، فإذا سافرتُ إلى الخارج في إجازة أو عمل حرصتُ على
الالتقاء بهم وقضاء أسعد الأوقات معهم . . بل إنني قد أعدد في بعض
الأحيان خط سير الرحلة إلى الخارج على أساس خريطة هؤلاء الأصدقاء
الموزعين في أرجاء الكرة الأرضية ، فإذا كنتُ مسافراً إلى باريس ، فإنني
أمنّي النفس قبل السفر بلقاء الأحياء المقيمين هناك ، وأتخيل أوقات
الصفاء التي ستجمعنا معاً ، وأوقات السمر التي نستطول بينها . .
و«المؤامرات» التي سندبرها لهذا الصديق أو ذاك للاستئثار به معظم
أوقات الرحلة دون بقية شواغله واهتماماته ، ولا أكتفى بذلك ، وإنما
أفكر أيضاً في برنامج الرحلات الداخلية والخارجية خلال الزيارة ،
والذي سنحاول تنفيذه بلا هدف سوى أن نلتقي بالأصدقاء المقيمين في
العواصم والمدن القريبة نسبياً .

وإذا سافرتُ إلى دولة عربية كان كل همي هو أن أرى مَنْ أعرفه من
الأصدقاء فيها أو في العواصم القريبة منها . ونفس الشيء إذا سافرتُ
إلى أمريكا أو آسيا . . ومن اللحظة التي أصل فيها باريس مثلاً يبدأ

الاتصال بينى وبين الأصدقاء المقيمين فى العواصم القريبة ، ويستخدم
الجدال التقليدى بينى وبينهم على النحو التالى :

- تعال إلى فيينا - مثلاً - فى عطلة نهاية الأسبوع .

- لا . . . تعال أنت إلى باريس الآن بغير انتظار للعطلة .

وقد يُغالى بعضهم فى حسن الظن بقدرتى على الحركة ، فيقول لى
أحدهم - كما حدث أكثر من مرة وأنا فى باريس : تعال إلى واشنطن ،
ناسياً أن بينى وبينه محيطاً ورحلة تستغرق ثمانى ساعات بالطائرة! وهكذا
معظم أيام الرحلة . . . وقد ينتهى الأمر بى بالسفر إلى لندن بالقطار ، أو
إلى أمستردام بالسيارة ، أو إلى فيينا بالطائرة . وقد يستسلم أصدقاء
الخارج فى أحيان أخرى لرغبتى ، فيأتون إلينا فى إجازة قصيرة إلى باريس
خلال وجودى بها ، فأعتبر هذه الفترات السعيدة التى نقضيها معاً
ساعات مسروقة من العمر تجدد الصداقة وتغسل النفس من همومها . .
وتُثرى الروح .

وكان الصديق الذى سأحدثك عنه هنا واحداً من هؤلاء الأصدقاء
المقيمين خارج مصر . . . وكانت زيارتى إلى المدينة التى يقيم فيها كل سنة
فرصة ذهبية لتبادل أنخاب المودة الصافية معه ، غير أنى لاحظت خلال
السنوات الأخيرة أن شيئاً جوهرياً فى روحه قد تغير . . . وأنه لم يعد نفس
الصديق الذى أجد معه سكينه الروح كما كان الحال من قبل ، وسمعتُ
من الأصدقاء المقيمين هناك شكاوى مريرة منه ومن بعض تصرفاته ،

ومن اعتياده الدائم على تسامح الآخرين معه . . . ولمست منه شخصيًا بعض ما أكد لي صدق هذه الشكوى ، ووجدت نفسي في البداية أتعامل معه بمنهجى مع الأصدقاء الذين أحرص على ألا ينقطع حبل المودة بينى وبينهم ، فأتجاوز عن بعض هناته ، وأفسرها دائمًا بحسن النية أو قلة الإدراك ، وأتجاهل الجوانب السلبية في شخصيته وأتعامل مع الجوانب الإيجابية منها . . . مرددًا النفس دائمًا قول الشاعر :

إذا كنت في كل الأمور معاتبًا صديقك ؛ لم تلقَ الذى تعاتبه

أو متذكرًا قول ابن الرومى :

همُّ الناسُ والدنيا . . . ولا بد من قذى

يُلِمُّ بعينٍ أو يُكدرُ مشربًا

ومن قلة الإنصاف أنك تبتغى

المهذب في الدنيا . . . ولست المهذب !

حتى إذا امتلأت الكأس بما تنكره النفس على أحد الأصدقاء وتعكر صفوى تجاهها . . . وجدت نفسي محكومًا بطبعى الذى لا حيلة لى فيه ، راغبًا عن صحبته لفترة من الوقت اعتبرها فترة نقاهة ضرورية ، وأحاول خلالها إفراغ الكأس من محتواها لترجع خالية من جديد ، ثم أستأنف لقاءاتى به وليس فى صدرى مالا أحب أن ينطوى عليه تجاهه ، فإذا عاتبني على الانقطاع عنه تلك الفترة وجدت في نفسي أخيرًا القدرة على

الإشارة إلى ما ثقل علىّ التجاوزُ عنه من أمره ، وعاتبته عتاب مَنْ يتلهف على أن يجد لديه ما ينفي ظنونه ، وليس ما يثبت الخطأ . . . ولقد يضيع من الذاكرة أكثر ما وجدته عليه من قبل ، فلا أتذكر منه إلا أقل القليل ، وأحمد الله كثيراً على ذلك ؛ لأن الحياة السليمة تحتاج إلى ذاكرة ضعيفة بالنسبة لأخطاء الأصدقاء ، وقوية بالنسبة لمآثرهم وعطائهم ، ولولا هذه الذاكرة المركبة لما طالبت صداقة ، ولا استمرت علاقة إنسانية طوال رحلة العمر . . . ولقد كانت مشكلتي في ذلك الصيف وأنا أستعد للسفر إلى تلك المدينة الأوروبية أن صديقي هذا كان قد تمادى في الاعتماد على تسامحي معه وتجاوزي عن هناته ، فأساء إليّ عن قصد أو غير قصد إساءة مؤلمة ؛ فامتلاّت كأسى بالنسبة له ، ووجدتُ نفسي قبيل السفر أتساءل : كيف سأقضي في مدينته أسبوعين كاملين بغير أن نلتقى خلالها ، والأصدقاء المشتركون بيننا كثيرون ، وسيعلم بالضرورة منهم بوجودي في المدينة ؟! وكيف سأتعامل معه إذا اضطررتُ للقاءه بغير أن ينعكس عتبي عليه في فتور لقائي به ، وهذا ما لا أرضاه له أو لنفسي في مثل هذه الظروف ؟!

وشغلّنتني هذه المشكلة حتى أصبحتُ همّاً ثقيلاً بالنسبة لي قبيل السفر ! وبعد تفكير « طويل » فيها انتهيتُ إلى أنه من الأفضل لي وله ألا ألتقي به وأنا مازلتُ عاتباً عليه ما اعتبرته إساءة غير مفهومة لي ، لكيلا أعجز كعادتي عن التعامل معه بصدر سليم ، فيكون ذلك سبباً لتعميق المشكلة بدلاً من حلها . وارتحّْتُ إلى هذا الاختيار ، وشعرتُ بأنني لن

أقدر على سواه ؛ لأننى للأسف واحد ممن يعجزون عن إخفاء مشاعرهم الداخلية تجاه الآخرين . . . إيجابية كانت أو سلبية . . . بل إنها تنعكس رغماً عنى على صفحة وجهى ، ويتعذر علىّ أن أتعامل بود ظاهرى مع من لا أجد له فى نفسى ودّاً حقيقياً . . . كما أنى لا أرى نفسى مطالباً بالتظاهر بغير ما أشعر به فى أعماقى تجاه الأصدقاء المقربين والأهل والأحباب ، لأن تكلف المشاعر معهم لا يتفق مع عمق العلاقة ، ولأنه إذا جاز للإنسان أن يتعامل مضطراً مع مَنْ ينكر عليهم بعض سلوكهم تجاهه فى دوائر العمل والحياة ، محتفظاً لنفسه بمشاعره الحقيقية تجاههم ، فإن ذلك لا يجوز له أبداً فى دائرة الصداقة ، حيث لا أجد مبرراً لأن يُجَالِسَ الإنسان فى أوقات سَمَره وصفائه من تتكرر مرآته الداخلية منه ، أو مَنْ لا يشعر بالصفاء التام تجاهه . . . وهكذا استقر رأى على السفر إلى هذه المدينة بغير الاتصال به مسبقاً ، وعلى قضاء الفترة المقررة لى فيها دون لقاءٍ معه .

ونفذت ما انتويته وأوصيتُ الأصدقاء المقيمين هناك بتجنب إبلاغه بقدومى إليهم ، وبالغتُ فى ذلك تجنباً لخرج اللقاء معه دون صفح حقيقى فى داخلى تجاهه ، وحرّمتُ على نفسى كل الأماكن والمظان التى اعتدنا أن نلتقى فيها خلال وجودى فى مدينته ، وكلفتُ نفسى وأصدقائى رَهَقاً فى سبيل الالتزام بذلك ، فاعتذرتُ عن دعوة للعشاء فى بيت أحد الدبلوماسيين المصريين بالمدينة لعلمى أنه سيكون من بين المدعوين إليه ، واعتذرتُ عن حفلٍ مماثل فى أحد المطاعم لنفس

السبب ، وتجنبْتُ المرورَ أمام المقهى الذى اعتدنا اللقاء فيه طوال فترة إقامتى لكيلا نلتقى بالمصادفة فيه أو أمامه ، وكلما سألتنى أحد الأصدقاء عن سبب ذلك ، أجبتُهُ بأنه لصالح صداقتنا ، وأن المسألة مسألة وقت لا أكثر . . تصفو النفس بسببه ، وقد لا أحتاج حينذاك حتى إلى العتاب والحساب معه !

واحترم الأصدقاء رغبتى فى ذلك ، ومضت فترة الأسبوعين فى بهجة خالصة ومتعة حقيقية بين أصدقاءٍ لا ينطوى أجدهم للآخر إلا على أجمل المشاعر .

وهنأتُ نفسى على نجاح خطتى ، وقوة عزمى . . ثم حان يوم السفر ، فاصطحبني أحد هؤلاء الأصدقاء إلى المطار وأنهيانا الإجراءات ، ووجدنا أمامنا بعض الوقت فاتجهنا إلى كافتيريا المطار لنحتسى القهوة ونتبادل حديث الوداع . . فلم نكد نمشى فى زحام المسافرين والمودعين بضعة أمتار ، حتى وجدتُ صديقى هذا يلكنى فى جنبى ويقول لى هامسًا : لا تنظر خلفك !!

فسألته هامسًا بدورى : لماذا ؟

فقال : فلان خلفنا يبضع خطوات ومعه الدبلوماسى المصرى الذى كان ينبغى أن نتناول العشاء فى بيته منذ ليلتين !

ياربى . . تجنبْتُ كل مُظانَّ اللقاء به على مدى أسبوعين كاملين ، وظننتُ أننى قد تجنبْتُ الحرج معه . . فيكون لقاء المصادفة بينى وبينه

فى المطار وأنا أأأهب للعودة ؟! ماذا أفعل الآن ؟ وكيف أبرر له سفرى
بغير الاتصال به ومقابلته طوال فترة إقامتى بمدينته ؟ وكيف ىنعكس
ذلك سلبىًا على علاقتى به وأنا من أأجنبُ لقاءه طوال فترة عتبى عليه
لكى نتأاوز هذه السأابة الثقيلة بعد بعض الوقت ؟ . . أأرتُ فىما أفعل
. . ولم أأأد مفراً من مواصلة المشى فى أأأأ الكافتىرىا على أمل أن أأأب
عنه رؤىتنا فى زأام المسافرىن بالمطار . . وأأأأنا إلى الكافتىرىا ، فأأأرتُ
أبعد مقعد فىها وأأأستُ إلىه مولىًا أأهرى للمأأأل . .

وأأأنا نأأسى أأأوة فى صأمت وأرأأاك ، وأأ أأأر صفوى بهذا
أأأأ المأأأ . . فأأأأ بضع أأأأأ أأأأأ بعدها أنى أأ نأأأ من
الموقف المأأأ . . فلم أأأ أأأأأ لأأأ أأى رأىأ صأأقى الذى
مأأأسنى أأ أنأأ وأأأأ وهو أأأ مرأأأ : أهلاً سىأاة السفىر!!

وأوقأأ بأأورى ، فأأأا بالأأأأأسى المأأرى - وهو بأأأة سفىر -
أأأ مع الصأأق إأاه أأأى مأأأة ، وأمأ أأه لى مصأأأ ومأأسأا ،
فأصأأأه وأنا فى أأاة الاضطراب ، أأ أنظر فأرى صأأقى أأأ إلى
أأأه فى أأأ وأأ أأأأ وأأه بالأأأأ والأأأ ، فأأمأ أأى إلىه وأنا
لا أأأ أراه من أأة أأأ وأأأأ . .

وأأأا بالأأأأأسى اللأأ أأأ لى بأأأة أأأ معنى : أأأ لى أن
أأأ إلىك صأأقك فلاأا !!

فأأأ بى أأأ أأأه ، وأأأأ بأأ السفىر أأ أأأ الموقف بىنى

وبينه . . . وأنها لابد قد رأينا قبل ذلك بفترة في أبهاء المطار ، ولاحظا محاولتنا لتفادى اللقاء معهما . . . فتتبعنا إلى الكافتيريا ، ولعلهما تحدثا خلال ذلك عن تلك الجفوة الطارئة بينى وبين هذا الصديق . . . وأراد السفير أن يذيب الجليد بينى وبينه بتقديمه إلى هذه الطريقة المسرحية ! ولم أعجب حين علمت أن السفير سيسافر معى على نفس الطائرة ، لكنى عجبت حقاً حين عرفت أن الصديق إياه من بين كل أصدقائه هو الذى جاء معه للمطار لوداعه !

فإذا كنت قد تذكرت في هذه اللحظة كل الأمثال والحكم العربية عن الحذر الذى لا يغنى عن قدر ، فلقد تذكرت أكثر منها ذلك المثل الدارج عمن يتمنى أن تنشق الأرض تحت قدميه لتبتلعه فينجو بذلك من موقف يشعر فيه بالإحراج والكسوف !

ألا لعنة الله على خطرات النفس التى تفسد على الأصدقاء القدامى بهجتهم السابقة بلقاء بعضهم بعضاً وتُحِلُّ محلَّها مثل هذا الحرج والضيق !

لقد حدث كل ما خشيتُه من قبل إذا تم اللقاء بينى وبين هذا الصديق قبل أن تتخلص الكأس مما يملؤها . . . وبدلاً من أن نتصافى بعد قليل من الزمن وترجع صداقتنا إلى سابق عهدها . . . ازداد الأمر تعقيداً ، واعتُبرتُ أنا - فى الحساب الختامى - مُخْطِئاً فى حقه . . . وليس صاحب حق عليه ! ولم أجد ما أدافع به عن نفسى سوى أننى قد رغبتُ فى ألا نلتقى إلا وأنا كسابق عهدي معه لا أحمل له إلا الود والمحبة . . .

لكن شتان ما بين العتاب من موقف الاستعداد للتسامح والتجاوز
عن الهفوات ، وبينه من موقف الحرج والشعور بالخطأ . .

فلقد سُحِبَتِ السجادة من تحت قَدَمَيَّ . . وتحولتُ من ضحية إلى
جانٍ ، وكل ذلك بسبب هذه الصدقة «السعيدة» في مطار تلك المدينة
الأوروبية ذات صباح !

ألا ترانى محقاً إذن في كراهية المبالغة الزائدة في الحذر الذى لا يغنى
عن قدر . . والخوف الشديد من الأشياء الذى قد يدعوها للمجىء
إليك بدلاً من إبعادها عنك ؟ !

ولا فخر

في فيلم مصرى قديم، رجع الأب إلى بيته
فوجد ابنه الصغير يستذكر دروسه ويقرأ
فصلاً عن فتوحات نابليون ، وكعادة الآباء
فقد وجدها فرصة لاستشارة حماس ابنه
للنجاح والتفوق ، فقال له بلهجة ذات معنى:
إن نابليون حين كان تلميذاً صغيراً كان
متفوقاً في دراسته ويأتى ترتيبه الأول دائماً
على فصله .. وليس الخامس مثله!

« ولم تُقَتِ » الغمزة على الطفل الشقى . . فقال لأبيه على الفور . .
ومن نفس «المقام» : إن نابليون كذلك حين كان في عمر الأب الآن كان
قد أصبح إمبراطورًا لفرنسا وليس موظفًا صغيرًا بإحدى الشركات ! فلم
يملك الأب إلا أن يضحك لسرعة بديهة طفله ويزجره طالبًا منه الاهتمام
بدروسه !

قفشة ذكية ؟ . . نعم . . ومخرجة أيضًا ، لكننا قبل أن نلوم هذا
الطفل الشقى على إحراجهِ لأبيه بهذه المقارنة الظالمة ينبغي لنا أيضًا أن
نتأمل ما تكشف عنه هذه المساجلة بين الأب وابنه من رموز ومعان !

فالمشكلة هي أن كل أب وكل أم في الوجود يريدان لأبنائهما أن يكونوا
دائمًا الأفضل والأنجح بين كل الأبناء ، ولتحقيق هذا الهدف فقد يسرف
بعضهم في استخدام أسلوب المقارنة بالغير لاستثارة حماس الأبناء
ودفعهم للتفوق ، لكن المغالاة في استخدام هذا الأسلوب تحقق دائمًا
نتائج عكسية ، وبدلاً من أن تخلق لدى الأبناء الغيرة الإيجابية التي
تدفعهم لبذل الجهد وبلوغ ما بلغه غيرهم من أهداف الحياة بجده
واجتهاده ، فإنها قد تثير السخط في نفوسهم على ذويهم . . وقد تخلق
لديهم السلبية التي تكتفى بالحقْد على هؤلاء الآخرين الذين يلمع
نجاحهم في الأفق ، فيجسم - بمفهوم المخالفة - قصور الأبناء وعجزهم
عن مجاراتهم في السباق . . وقد تخلق لديهم الإحساس بالإحباط والمرارة
والياس من أي تقدم ، مادام «الآخرون» سيظلون دائماً في عيون الآباء
الأفضل والأنجح مهما بذلوا هم من جهد أو تكبدوا من عناء . . وقد

تفاعل هذه الأحاسيس في نفوس الأبناء فتسلمهم إلى الإحساس بالنقص تجاه القرآن الناجحين .

أذكر حين كنتُ تلميذاً بالمدرسة الابتدائية ، أن أحد مدرسينا كان يغالى في اتباع هذا الأسلوب الخاطيء في حثنا على التفوق والالتزام بالسلوك القويم! . . . وكنتُ حينذاك تلميذاً بفصل «ثالثة ثان» ، فكان مُدَرِّسُنا لا يمل من عقد المقارنات الظالمة بين «خبيتنا الثقيلة» وبين نبوغ تلاميذ فصل «ثالثة أول» وتفوقهم ، وبين «همجيتنا» وسلوكنا البدائى ، وبين تحضر تلاميذ هذا الفصل السعيد ورفيهم وسلوكهم المهذب .

فإذا دخل علينا الفصل متأخراً بعض الوقت عن مواعده لأنه كان مشغولاً مثلاً بالتسامر مع زملائه في غرفة المدرسين فسها عن موعد الحصة ، ووجدنا كعادة التلاميذ حين يغيب عنهم مُدَرِّسُهم يلهون ويعبثون ويصخبون ، وقف بيننا للحظات صامتاً و«متألماً» ثم قال لنا بلهجة «درامية» حزينة إننا قد رسبنا للأسف في «الاختبار» الذى أجراه لنا عن عمد ، وأنه قد تعمد أن يتأخر عن دخول الفصل بعض الوقت ليرى كيف سيكون سلوكنا خلال غيابه ، فإذا بنا كالعادة نتصرف بهمجية ، فى حين أنه حين أجرى مثل هذا «الاختبار» عامداً لتلاميذ «ثالثة أول» ودخل عليهم الفصل بعد ١٥ دقيقة من موعد الحصة ، فوجد كل تلميذ منهم يجلس فى أدب وهدوء فى مقعده ويستذكر دروسه السابقة ، أو يقرأ مُقدِّماً درس الحصة القادمة ليكون على إمام به قبل أن يبدأ !

أما حين يوزع علينا كراريسنا بعد اختبار الشهر - ومنا المتفوقون ومنا المتوسطون والراسبون ككل تلاميذ الدنيا - فإنه لا يدع الفرصة تمضى دون تأنيب وتقريع لنا ، لأنه في حين ينجح منا مَنْ ينجح ويرسب من يرسب ، فإنه يحار عند تصحيح كراريس «ثالثة أول» لأن كل التلاميذ متفوقون ويحصلون على الدرجات النهائية ، ولا فارق بين أولهم في الترتيب وآخرهم !

أما حين يدق الجرس مؤذناً بانتهاء اليوم الدراسى وندفع كعادة الصغار للخروج من الفصل والفكاك من أسر المدرسة ، فلم تكن تعوزه الفرصة حينذاك أيضاً للمقارنة بين سلوكنا الهمجى هذا ، وبين السلوك الراقى المتحضر لتلاميذ الفصل السعيد عند انتهاء اليوم الدراسى ، وهم حين يدق جرس المدرسة يتمهلون فى الخروج من فصلهم . . ويرتبون حقائبهم فى هدوء . . ثم يودع كل منهم الآخر فى أدب متمنياً له أوقاتاً سعيدة «فى ظل والديه» . . ثم يخرج فى وقار من المدرسة «آسفاً» لانتهاء اليوم الدراسى ولما يشبع بعد من العلم والدروس !!

وهكذا فى كل أوجه السلوك . . حتى استقر فى مخيلتى حينذاك أن هؤلاء التلاميذ الأفذاذ من «طينة» أخرى غير طينة البشر ، وأنهم ليسوا فى الحقيقة سوى ملائكة صغار ترفرف بأجنحتها الرقيقة فوق بحر من الهمج هم نحن - ولا فخر - وأمثالنا . . وحتى استقر فى وجدانى أنه هيهات أن نبلغ مواطىء أقدامهم مهما كَبَحْنَا فى أنفسنا رغبات الطفولة وحاولنا الالتزام بالسلوك القويم والاجتهاد فى دروسنا ، إلى أن غبت ذات مرة

بضعة أيام عن الدراسة لوعكة صحية ألثت بى . . ورجعتُ للمدرسة مسلحًا بالشهادة الطبية التى تبرر غيابى عنها، فلم يمض وقت طويل على بدء الحصة الأولى حتى جاء قرّاش المدرسة يستدعيني لمقابلة الناظر وتفسير انقطاعى عن الدراسة، واستأذنتُ فى الخروج مع القرّاش واصطحبتُ الشهادة الطبية معى، وعبرتُ فى طريقى إلى مكتب الناظر بموقع فصل الملائكة القريب، فإذا بى أسمع قبل أن أقرب منه ضجيجًا مخيفًا صادرًا عنه . . وتوقفتُ مذهولاً أمام باب الفصل المفتوح لأرى «الملائكة الأبرار» الذين لم يدخل إليهم مدرّسهم بعد، وأفاجأ بهم وهم يتضاربون ويتعاركون ويتراشقون بالأقلام والأحبار والصواريخ الورقية، وقد اعتلى بعضهم مكاتبهم، ووقف البعض الآخر على حافة نافذة الفصل، وراح آخرون يدقون بعنف على أدرّاجهم المدرسية . . وملابسهم جميعًا مهوشة، وشعورهم منكوشة، وملامح وجوههم لا تشى أبدًا بالملائكية ولا بالمثالية التى رسمتها لهم فى خيالى . . ولاحظ القرّاش وقوفى ذاهلاً أمام فصل الملائكة غير الأبرار هؤلاء . . ولم يدرك بالطبع عمق صدمتى فيهم أو فى أحلامى العاجزة من قبل فى أن أصل ذات يوم إلى أعتاب تفوقهم وسلوكهم الراقى وتهذيبهم .

وبلغت المفارقة قمّتها حين أراد القرّاش حثى على مواصلة السير، فدخل فصل التلاميذ الأفذاذ وصاح فيهم مؤنبًا ولائمًا ومهددًا بإبلاغ الناظر عن سلوكهم الهمجى . . فانكمشوا خائفين والتزموا بعض الهدوء، ثم رجع القرّاش منتصرًا وسحبني من يدي إلى مكتب الناظر !

ولأيام عديدة بعدها ، ظلت هذه الصورة تطاردنى وتثير عجبى وألمى
وتساؤلى : أهؤلاء إذن هم التلاميذ المثاليون الذين تخيلتهم كالملائكة
ذوات الأجنحة؟ إنهم بشر كالbشر لهم أخطاءؤهم ولهم إيجابياتهم مثلنا ،
فلماذا نغصّ علينا أستاذنا حياتنا بعقد هذه المقارنة الكاذبة دائماً بيننا
وبينهم؟

ولم يسعبنى عقلى وقتها لإدراك أن كل ما قاله لنا عنهم أستاذنا لم يكن
سوى حيلة تربوية خاطئة من حيل المقارنة بالغير لاستثارة الحماس فىنا
للتفوق والالتزام ، ولا لكى أفهم أن هذه الحيلة قد تجاوزت حدود الأمان
بالمغالاة فيها ، وبإرهاقنا بمطالبتنا بما لا تسمح به طبيعة الطفولة من
الالتزام الحديدى بالنظام والسلوك الملائكى الذى يصل إلى حد استذكار
الدروس مقدماً ، ومغالبة الرغبة فى الانطلاق من سجن المدرسة بعد
انتهاء اليوم الدراسى!

لكنى شعرت رغم ذلك كله باللوم لأستاذنا الذى كاد يُشعرنا من
حيث لا يريد بالنقص تجاه قرنائنا وبالعجز عن إمكان بلوغنا حد
السلوك المقبول فى يوم من الأيام ، ولا عجب فى إحساسنا بذلك ما دام
هناك دائماً مَنْ يسبقنا على الطريق بأُميال . . وهيهات أن نلحق به ذات
يوم!

وهذا هو خطر اعتماد هذا الأسلوب الخاطىء فى التشجيع على التفوق
والالتزام ، فالمقارنة بالغير . . ومحاولة إيجاد المثل الأعلى الذى يحتذى

الإنسان أسلوب سليم في التربية ، ولكن بشرط عدم المغالاة فيه إلى حد
مطالبة هذا الإنسان بما لا تسمح به طبيعة المرحلة التي يعيشها من عمره
.. وبشرط أن يجيء ذلك عفويًا وباعتدال ، ومع الاستعداد للاعتراف
بمميزات مَنْ نطالبه بمواصلة الاجتهاد والتفوق لبلوغ الأهداف ، أما
المغالاة في المقارنة بلا حساب وبلا مراعاة لاختلاف الظروف والقدرات
فقد تجرنا إلى تضخيم فضائل الآخرين على حساب تقديرنا لفضائل
أعزائنا ، وإلى المبالغة في تقدير تفوق الآخرين على حساب تقديرنا لجهد
الأعزاء واجتهادهم ، ولا عائد لمثل ذلك في النهاية سوى إشعار هؤلاء
الأعزاء بالعجز والنقص واليأس من تحقيق أى تقدم حقيقى في الحياة !

فإذا كان التلميذ الشقى في الفيلم القديم قد أضحك أباه رغماً عنه
حين ذكَّره بما كان نابليون قد حققه في حياته حين كان في عمر أبيه ،
فلقد أشعره أيضًا من حيث لا يقصد بنوع من الحرج الإنسانى لا ذنب
للأب أو لأى إنسان آخر فيه ، لأنه ليس كل البشر من العظماء
والعابرة ، ولا هو من طبيعة الأشياء أن يصبحوا كلهم كذلك ، فالنبوغ
والعبقرية حالات فردية وستظل كذلك إلى نهاية الكون ، وليس من
الحكمة أن نحاول استشارة حماس شاب لأن يكون إنسانًا ناجحًا في
حياته ، فنذكره مثلاً بأن «الإسكندر الأكبر» قد أخضع الولايات اليونانية
المعادية لبلده مقدونيا وخرج إلى فتوحاته الخارجية فهزم الفرس وفتح مصر
وسوريا والعراق ، ثم مات بالحمى وهو في طريقه إلى الهند وأفغانستان
ولما يبلغ عمره بعد الثالثة والثلاثين !

ولا هو من المفيد أن نذكر مثل هذا الشاب بأن «رمسيس الثانى» كان على رأس جيوشه المظفرة التى يجول بها أراضى سوريا والعراق ذهابًا وإيابًا وهو فى الثامنة عشرة من عمره، أو بأن «نابليون» قد بلغ رتبة الجنرال فى الجيش الفرنسى وعمره ٢٥ عامًا ، وعبرَ جبال الألب بجيوشه ليهزم النمساويين وعمره ٢٩ عامًا !

ولا أيضًا أن نذكره بأن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، قد وضع «أسامة بن زيد» على رأس جيش المسلمين لفتح الشام وعمره ٢٢ عامًا ، ولا بأن الرسول ﷺ قد أمّر على مكة بعد الفتح شابًا عمره ١٨ عامًا اسمه «عتاب» ، وفى مكة سادات قريش وأشراف العرب .

ناهيك عن معجزات باقى العباقرة والتابغين الآخرين ، ابتداءً من «موزار» الذى ألّف أولى سيمفونياته وهو فى التاسعة من عمره ، إلى سيدنا «يوسف» الذى أدار ميزانية مصر بنجاح وهو فى سن الشباب ، إلى المليونير الأمريكى الشاب «بيل جيتس» عبقرى الكمبيوتر الذى ترك الجامعة وعمره ٢٠ عامًا وتفرغ لابتكار برامج الكمبيوتر ، وأسس شركته لبيع هذه البرامج ، فإذا به يصبح «مليارديرًا» فى سن الواحدة والثلاثين ، وإذا بهم يقولون عنه الآن إنه حين بلغ الثانية والأربعين كانت شركاته قد أصبحت تحقق كل يوم ربحًا صافيًا يزيد عن ١٠ ملايين دولار، وإنه حين يدخل فراشه لينام ٨ ساعات كغيره من البشر ينهض من نومه فى الصباح فيجد نفسه قد ربح أكثر من ثلاثة ملايين دولار بلا جهد منه سوى الاستغراق فى الأحلام السعيدة !

وغير هؤلاء كثيرون وكثيرون ، فإذا كنا نرى قصص نجاحهم وعبقرياتهم من باب الإعجاب بهم ، والتأكيد على قدرة الإنسان على تحقيق المعجزات إذا أحسن استخدام قدراته ومملكاته وإبداعاته ، وساعدته الظروف المحيطة به على إطلاق هذه القدرات ، فإننا نقول أيضًا إن العبقرية تظل في النهاية حالة فردية محكومة بظروفها التاريخية والاجتماعية ، وليس من التربية السليمة أن نظلم أعزاءنا بالمقارنة الظالمة بينهم وبين أمثال هؤلاء العباقرة والناجحين كل يوم ، ولا في كل مناسبة ، لأن المقارنة العادلة إنما تكون بين أكفاء في القدرات وفي الظروف وفي الأهداف التي يسعون إليها . .

ولكل إنسان بعد ذلك ظروفه وقدراته التي تؤهله لأن يحقق نجاحه في مجاله ويسعد بما حققه من خطوات كثيرة أو قليلة على الطريق الطويل . . ولا بأس بعد ذلك بأن يتطلع لما هو أفضل وأرفع ، بشرط عدم المغالاة في الطموح الضارى الذى لا يراعى القدرات ويتعلق بالمستحيل ، ويقتل الروح والعلاقات الإنسانية ، ويفسد الأوقات بشرور الحقد على الناجحين ، والغيرة المرصية السلبية منهم .

فلسوف يبقى هناك دائماً ومهما فعلنا مَنْ هم أفضل منا وأنجح في كل المجالات ، ولن يمنعنا ذلك من أن نعجب بنجاحهم وعبقرياتهم ، ولا من أن نرضى في الوقت نفسه عما حققناه نحن بكفاحنا ، وعما أتاحته لنا ظروفنا وأقدارنا في الحياة .

* فإذا كان الأمر كذلك . . فلا تذكرني كل لحظة من فضلك بها حقه
الآخرون حين كانوا في نصف عمري . . ولك على ألا أذكرك وألا أعايرك
بها حقه العظماء والعباقرة حين كانوا أصغر منك . .
وشكراً لك إذا التزمت بهذا «الاتفاق» العادل بيننا !

أحباء الحياة

سبعس الأشخاص تحب الحياة حين
تعرفهم فتبهج بها ، وتغنى لها مع الشاعر
الغنائى الأصيل المرحوم « محمد على أحمد » :
عَنَيْتُ للدنيا فمن ذا يُغْنَى لى ؟
وبعضهم تُزهدك معرفتهم فيهم وفيها !

ولقد كان من حظى أن عرفتُ عددًا غير قليل من هؤلاء الأشخاص الذين يُضيئون الحياة بوجودهم فيها ، وتنقُص الدنيا الكثير من أنسها وبهجتها بغيابهم عنها . ومن هؤلاء كان صديقى الفنان الكبير الراحل «محمد عبد المنعم رخا» أو «رخا» كما كان معروفًا لدى الجميع ، وكما كان يوقع رسومه الكاريكاتورية الجميلة فى أخبار اليوم وفى عشرات من الصحف والمجلات قبلها .

ولقد عرفتُ الفنان رخا فى نقابة الصحفيين فى أوائل الستينيات ، كنتُ مازلتُ محررًا تحت التمرين بالأهرام . . وكان هو نجمًا ساطعًا فى سماء الصحافة المصرية ، وفى قمة نضج السنين والشهرة ، وبالرغم من ذلك فلم أشعر لحظة واحدة حين عرفته بفارق السن بيتنا ولا بفارق المكانة والشهرة ، فلقد كان فنانًا بطبيعته وشديد التواضع وسريع الألفة للآخرين ، يجتذبك إليه بسماحته وتواضعه وخفة ظله وسحر حديثه الممتع .

ومنذ اليوم الأول الذى عرفته فيه ، فُتنتُ بشخصيته الأسرة ، وباستعداده الفطرى للابتهاج بالحياة وارتشاف كل متعها البريئة ، وقدرته على إشراك الآخرين معه فى الابتهاج بالحياة والاستمتاع بها .

فلقد كان محدثًا بارعًا لا تمل حديثه ولا تشعر معه بالزمن ، وكان محبًا للسهر لا يريد لليل أن ينقضى لكيلا يتفرق جمع الأحباب ويذهب كل منهم فى طريق .

وعلى عكس « ليل الصب » الذى لا يعرف من يكابده « متى غده »
فى الموشح الأندلسى الشهير ، كان ليل رخا سريع الانقضاء حتى ليشعر
المرء بالأسف لسرعة انقضائه واضطراره لأن ينصرف عنه إلى قليل من النوم
قبل أن يذهب إلى عمله .

وكان أكلًا يتذوق الطعام الجيد ويعشقه وَيَطْرُبُ له ، وينشد فيه
الأناشيد ! ويستدرجك لمشاركته الطعام ويغريك به حتى لتجد نفسك
بعد قليل وقد انسقت معه إلى الشراهة فى الطعام . كما كان ذواقة للطرب
وصديقًا قديمًا لأم كلثوم وزكريا أحمد وبيرم التونسي ، ويحفظ ألحان زكريا
وأشعار بيرم ويرويها ، ويحكى عن أم كلثوم وزكريا وبيرم الحكايات
المتعة ، وينسى نفسه أحيانًا وهو يلعب الشطرنج أو الدومينو فى
النقابة ، فيرفع صوته الجميل ببعض غنائهم ، فيفاجأ بصيحات
الاستحسان من حوله تطلب المزيد !

وكان مفهومه للوقت مختلفًا عن كثيرين غيره ، فلقد آمن بأن الجلسة
الطيبة والصحبة المريحة لا يعدلها شئ فى الحياة ، فإذا جاء إلى النقابة فى
الظهر وانعقدت منافسات الدومينو الرباعية مع أصحابه ومن حولهم
المشجعون والأنصار ، قد يقضى النهار كله والمساء والليل فى نفس
الجلسة ونفس المكان ، ولا بأس بذلك مادام الطعام يجىء حين يحتاج
إليه ، ومادامت فناجين القهوة السادة متاحة فى كل وقت ، ومادامت
سجائره التى لا تكاد تنطفئ متوفرة ، فإذا خلا المكان عليه وعلى « شلته »
« فى الهزيع الأخير من الليل ولم يعد هناك بد من الانصراف رحمةً

بحارس النقابة الذى يحتاج لإغلاق المبنى والاستسلام للنوم ، خرج
الأحباب إلى الشارع ورخا يتساءل : إلى أين نذهب ؟

فمن كان متزوجًا منهم أو ينتظره عمل فى الصباح الباكر استأذن فى
العودة لبيته ، وهيهات أن ينجح فى ذلك قبل عناء طويل مع رخا الذى
يذكره بيت عمر الخيام :

فما أطال النوم عمراً

وما قصّر فى الأعمار طول السهر

ويؤكد له أن الأوقات البهيجة لا تعوض ، ويُروى عنه أنه كان فى فترة
من فترات حياته يرسم عشرين مجلة أسبوعية ، ويعمل ليومين أو ثلاثة
أحيانًا بغير نوم ، لأنه كان « يستخسر » أن ينام إذا وجد الأحباب
والأصحاب بعد نهار العمل الطويل ، ويعوض قلة النوم فى نهاية
الأسبوع .

فمِنَّا مَنْ كان يعجز عن مقاومة سحر رخا وندائه له بمواصلة السهر
حتى الصباح ، وقد كنتُ منهم فى معظم الأيام ، ومنا من كان يشفق
على نفسه من ذلك وَيَتَحَيَّنُ الفرص للإفلات آملاً فى بضع ساعات من
النوم ، ولقد روى لى رخا نفسه أنه كان يسهر ذات ليلة مع بيرم
التونسى ، فتنقلا طوال الليل بين عدة مقاهٍ وجلسات ، إلى أن وصلا
ميدان « طلعت حرب » فى الرابعة صباحًا فى طريقهما إلى مقهى يسهر
للصباح بميدان التحرير ، وبيرم التونسى يبدو له مستسلمًا وغير

معترض ، إلى أن فوجيء به يعدو مبتعدًا عنه إلى شارع جانبي وهو يقول له ضاحكًا :

- تصبح على خير يا رخا !

والحق أنها كانت معادلة صعبة بالفعل لكل أصدقاء رخا أن يستجيبوا لإغراء السهر معه كل ليلة حتى الصباح ، وبين أن ينجحوا في نفس الوقت في أداء التزاماتهم الضرورية تجاه العمل والأسرة وغير ذلك من الالتزامات ، فالرجل لا يرجع إلى بيته إلا مع تباشير الصباح الأولى ، وبعد أن تستيقظ القاهرة من نومها وتمتلئ الشوارع بالساعين إلى أرزاقهم ، وينام حتى الظهر ويؤدي عمله بأخبار اليوم في المساء حين يشاء ، ولا يرتبط إلا برسم عدد محدود من الصور في الصفحة الأخيرة من الصحيفة كل أسبوع بعد أن شبع عملاً وملاً الصحف والمجلات برسومه الساخرة على مدى ثلاثين عامًا ، وكان أول رسام كاريكاتير مصرى يُمَصِّر فن الكاريكاتير بعد الفنانين الأجانب ، وكنا نحن شبابًا نبدأ رحلتنا العملية في الحياة ونحاول أن نثبت وجودنا ونحقق نجاحنا ، لهذا فقد كان صعبًا علينا بحق أن نتفرغ بكل طاقتنا للعمل ، ونحن نسهر كل ليلة حتى الصباح مع هذا الفنان البوهيمي الساخر .

وأذكر أن رئيسي بالأهرام وقتها - الأستاذ « صلاح هلال » - قد حذرني من مواصلة السهر مع رخا كل يوم لكيلا يؤثر ذلك على عملي وصحتي ، لافتًا نظري إلى أنه هو نفسه يعرف سحر رخا وجلساته الممتعة ، وقد

انضم إليها في فترة من فترات عمره قبل أن « ينقذ » نفسه من إغرائها
ويتفرغ للعمل !

لكنني لم أكن أستطيع مقاومة نداء هذا الفنان العاشق للحياة ، وكنت
أعوض ارتباطي به بتقليل ساعات نومي ، وبذل كل ما أستطيع من
جهد في عملي خلال ساعات النهار التي نفرق فيها ، وأتبع « خطته »
المجربة من قبل في النوم طوال نهار وليل يوم الجمعة من كل أسبوع
لتعويض الإجهاد وقلة النوم .

والحق أن أكثر ما كان يفتنني في شخصية المرحوم رخا هو روحه
السمحة الطيبة التي لا تشوبها أية شائبة من الحقد والكراهية أو المرارة ،
بالرغم مما عاناه من ظلم عجيب في بعض مراحل حياته ، وبالرغم من
انكسار قلبه بمحنة صديقه الصدوق المرحوم الأستاذ « مصطفى أمين »
حين حُوكِمَ في عهد « عبد الناصر » وسُجِنَ تسعة أعوام حتى أُفْرِجَ عنه
في عهد « أنور السادات » ، وبافتقاده لصحبة صديقه الآخر المرحوم
« علي أمين » بعد هجرته من مصر ، بل وبالرغم أيضًا من انكسار قلبه
في مرحلة سابقة لمعرفتي به بوفاة أحب أبنائه إلى قلبه « عادل » .

أما الظلم الذي تعرض له رخا في حياته فلقد كان بحق ظلمًا فادحًا
وقاسيًا .

ففي فترة الانتشار في حياته التي كان يرسم فيها حوالي عشرين مجلة في
مصر ، كان يقدم رسومه لمجلة تسمى « المشهور » ، أصدرها في

الثلاثينيات النبيل « عباس حليم » رئيس حزب العمال وأحد أفراد الأسرة المالكة السابقة بمصر ، وفي أحد الأيام أضرب عمال شركة الأتوبيس الأجنبية بالقاهرة " ثورنكروفت " ، فاعتدى عليهم رجال الشرطة وألقى القبض عليهم ، فرسم رخا على غلاف المجلة صورة يظهر فيها المدير الأجنبي للشركة وهو يطعن عاملاً في ظهره بخنجر ، ورئيس الوزراء وقتها في ملابس رجل الشرطة يهرول ناحية العامل وينهره لأنه قد لوّث ملابس الخواجة بدمه القذر !

وألقت النيابة القبض عليه بتهمة إهانة رئيس الوزراء ، وقبل أن يتوجه إليها سلم للمجلة رسوم الأعداد التالية ، وحققت معه النيابة في التهمة الموجهة إليه ، ووعدته رئيسها بالإفراج عنه بعد يومين ، لكنه فوجئ بعد ذلك باستدعائه مرة أخرى للنيابة للتحقيق معه في تهمة أخرى لم تخطر له من قبل ، فلقد صدر العدد الجديد من مجلة المشهور وعلى غلافه صورة رسمها رخا لمحرر يحمل أوراقاً في يده ، وعلى هذه الأوراق عبارات مكتوبة بخط دقيق تحمل سباباً فاحشاً للملك « فؤاد » ورئيس الوزراء « إسماعيل صدقي » !

ولم يكن رخا هو الذى كتب هذه العبارات النابية ، وإنما أضافها أحد عملاء الحكومة إلى الرسم ليوقع به ويتيح للحكومة فرصة محاكمته وسجنه

وتكاثفت ظروفٌ معاكسةٌ عديدة على الرسام الشاب خلال محاكمته

عن هذه « الجريمة » . . فلقد كان القاضى الذى سينظر قضيته رجلاً عادلاً من أعلام القضاء المصرى ، وصار وزيراً للعدل فيما بعد ، هو المرحوم « ياسين أحمد باشا » ، لكن رئيس النيابة الذى كان يحقق فى القضية مرض " فجأة " ، فسُحِبَت القضية من دائرة ياسين أحمد باشا وأُحيلت إلى دائرة قاضٍ آخر من أنصار نظام الحكم كان مرشحاً لمنصب ناظر الخاصة الملكية . . فما أن انتقلت القضية إلى دائرته حتى شُفِيَ رئيس النيابة على الفور من مرضه " السياسى " ورجع إلى عمله .

ونظر القاضى المرشح للمنصب الكبير قضية رخا ، فلم يكن عادلاً مع المتهم ولا أميناً معه ، فلقد اعترض رخا على خبير الخطوط الذى انتدبته المحكمة لسوابقه العديدة فى رفض تقاريره والطعن فيها من الناحية الفنية ، فرفض القاضى طلب المتهم ، وطلب رخا خلال إحدى الجلسات أن تقوم المحكمة باستكتابه واستكتاب الحاضرين فى الجلسة ، وعرض خطوطهم على الخبير ليميز من بينها كاتب هذه العبارات النائية ، فرفض القاضى طلب المتهم ، ولو كان قد استجاب له لما قضى بسجنه ، إذ كان الشخص الذى كتب تلك العبارات بين الحاضرين فى نفس الجلسة ، وكان من المحتمل أن يكشف الخبير خطه لو كانت العدالة هى الهدف وليس الانتقام .

وهكذا تكاثفت كل الظروف ضده وصدر الحكم بسجنه أربع سنوات ، وتأيد الحكم فى الاستئناف لقلة خبرة المحامى الشاب الذى يدافع عنه .

ودخل رنخا السجن في جريمة لم يرتكبها ولم تخطر له على با ، وكان في ذلك الوقت زوجًا وأبًا . . فأعطاه الله - كما قال لي - الصبر علما تعرض له من ظلم ، والقدرة على أن يضحك من نفسه ويضحك الآ بن من حوله بالرغم من ذلك !

وقال لي فيما رواه من ذكريات عن هذه المحنة الأليمة في حياته :

- « لم أمضِ السنوات الأربع في سجنى ألعن الظلم أو ألعن الرأى الذى دسَّ علَيَّ هذه الكلمات النابية ليعين الحكومة على الانتقام منى وإنما نسيْتُ أننى مظلوم ، وتآلفتُ سريعًا مع الحياة في السجن ، ورحبتُ بأرسم شخصيات المساجين وضباط السجن والمأمور ، وأضحك وأثير ضحكات المساجين والسَّجَّانين من حولي ، وعينتُ نائب المأمور وقتها «محمود طلعت» خطاطًا بالسجن ليعفينى من الأعمال الأخرى المهينة داخل السجن ، وطلب منى كتابة لوحات لغرف المأمور ونائبه والمكتبة وعناصر السجن ، فكنتُ أكتب عبارة " حجرة المأمور " في أسبوع لأطيل من فترة خروجى من الزنزانة كل يوم من الصباح حتى المساء ، وأكتب عبارة " نائب المأمور " في عشرة أيام ، وكلمة " المستشفى " في ثلاثة أسابيع ، ومحمود طلعت يتسم فاهمًا وراضيًا ومشجعًا لى على أن أبطىء من عملى أكثر وأكثر !

ثم انضم إلى السجن الشاعر الفكاهى والأديب الراحل «عبدالسلام شهاب» في جريمة رأى مماثلة ، فحوَّلنا السجن معًا إلى

«سيرك» تتعالى فيه الضحكات كل يوم ، ويتهيج ضباط السجن بمشاهدة ومتابعة طرائفه !

ومضت هذه المحنة القاسية في حياته ، وغادر السجن بعد أن فقد آخر ما كان قد ورثه عن أبيه من أرض زراعية باعته الأسرة لتستعين بثمرتها على حياتها خلال فترة سجنه .

ورجع رخا للحياة والسهر ورسم الكاريكاتير في الصحف والمجلات ، وبعد ست سنوات من مغادرته السجن تقدم بأوراقه إلى نقابة الصحفيين لقيده في جدولها ، فكان رئيس لجنة القيد هو المستشار «ياسين أحمد باشا» الذي كان مقدراً له أن ينظر قضيته في البداية ، فرحب به المستشار بحرارة وأيد بحماس قيده في نقابة الصحفيين ، ثم قال له إنه عندما بدأ يقرأ أوراق قضيته قبل سحبها من دائرته استوقف نظره أنه لم يستطع قراءة العبارات المنسوبة إليه في الرسم إلا بالعدسة المكبرة ، في حين أن سكرتير رئيس الوزراء الذي قدّم إلى النيابة البلاغ ضده قد أرسله للنياحة من مستشفى الدكتور «صبحي» للعيون بعد إجراء جراحة دقيقة في عينيه ، فكيف استطاع قراءة هذه الحروف الصغيرة جداً ؟ ولهذا فقد أحس أن القضية ملفقة ضده ، وتمنى لو كان قد حقق ظروفها وفصل فيها !

ومن عجائب القدر أن الشخص الذي اكتشف رخا بعد عدة سنوات أنه هو الذي دس عليه هذه الكلمات النابية ، وكان يطمح من وراء ذلك

إلى أن يجنى ثمرة خستته ودنائه من حكومة صدقي باشا ، قد قلبت له الأيام ظهرَ المجن - كما يقولون - بأسرع مما كان يتوقع ، وسقطت حكومة صدقي باشا بعد ذلك بشهور ، وانفض عنه الأنصار والطامعون ، ووجد هذا الشخص نفسه خلال فترة قصيرة بلا منصب في الحزب ولا عمل في صحيفته ، وتدهورت أحواله للنهاية ، فانصرف عن العمل الحزبي والصحفي ومرض مرضاً شديداً كاد أن يُعجزه عن الحركة ، فكان في أخريات أيامه يَتَكَفَّفُ بعض زملائه القدامى في الصحافة ، وكان من بين مَنْ مَدَّوا إليه أيديهم بالإحسان هذا الفنان البوهيمي الغريب رخا ! فلقد ذهب إليه ذات ليلة في نقابة الصحفيين وقال له باكيًا : سامحني يا رخا!

فلم ينهره أو يعنفه ، وإنما أشاح بوجهه عنه قائلاً له : إن الله العلي القدير هو وحده من يعفو ويصفح ، ثم مَدَّ إليه يده بمنحة مالية أخذها الرجل وانصرف ، ورخا يرقب مشيته الزاحفة وهيئته الرثة ويتعجب لتصاريف القدر !

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ - الآية ٣٣ من سورة النحل .

ولم يكن ذلك وحده هو ما تعرض له الفنان رخا من محن في حياته ، فلقد كابد الإحساس بالغربة النفسية في مرحلة سيطرة الماركسيين على صحف أخبار اليوم التي يعمل بها ، وكابد الإحساس " باليُثم " الفني

والصحفى حين سُجِنَ مصطفى أمين وهاجر على أمين ، ولم يسترد
طمأننته الهاربة إلا بعد الإفراج عن مصطفى أمين وعودة على أمين ،
واكتمال صحبة الزمن القديم فى حياته .

أما ما عاناه فى حياته من متاعب مالية بسبب إسرافه الشديد وعدم
تقديره لقيمة المال أو احترامه له طوال حياته ، فلقد كان كثيرًا كثيرًا ،
ويكفى أنه قد اضطر لبيع " فيلته " التى أقامها بكفاح السنين فى مدينة
الصحفيين ليسدد ديونه ويفى بالتزاماته تجاه أبنائه ، فباعها عام ١٩٧٣
بـ ٢٣ ألف جنيه فقط لا غير ، ولم تمض سوى شهور حتى وقعت حرب
أكتوبر واشتعلت أسعار الأرض والعقارات بمصر ، فإذا بهذه الفيلا
نفسها تعرض للبيع بثمن يتخطى المليون بعد ثلاث أو أربع سنوات فقط
من بيعه لها ! ولعل ثمنها الآن يزيد على بضعة ملايين . ومع ذلك فلقد
عاش حياته ضاحكًا متسامحًا مع الحياة .

وفى صباح يوم ٨ أبريل عام ١٩٨٩ توقف قلب هذا الفنان العاشق
للحياة عن النبض ، لكن الحديث عنه لا ينتهى ولن يتوقف ، ولعلّ
أرجع إليه مرة أخرى إذا أذنت لى بذلك .

غريب .. فى بيتى !

أعانى من حالة « انعدام وزن » أرجو ألا
تستمر معى طويلاً !
فلقد شهدت حياتى فى الفترة الأخيرة
تغيراً دراماتيكيًا هامًا هو تغير مكان إقامتى
من مسكن عشت فيه ثلاثين عامًا إلى مسكن
جديد انتقلت إليه منذ أيام ، ومن « جوار »
عرفته وألفته إلى جوار غريب عنى لم ألفه
بعد .. ولم يألبنى .

فبعد تردد طويل استغرق بضع سنوات ، حزمْتُ أمري أخيراً وقررتُ الانتقال إلى مسكن أوسع من مسكنى القديم وأكثر تلبية لاحتياجات أسرَتى ، ونفذتُ هذا القرار « بشجاعة » نفسية أرجو ألا تتخلى عنى فى أية لحظة فأقفلُ راجعاً إلى بيتى القديم !

ولكى تدرك عمق هذه « الشجاعة » التى افتقدتها طويلاً ، سأقول لك فقط إننى كنت أفكر فى تغيير مسكنى والانتقال منه إلى مسكن أوسع منذ أكثر من عشر سنوات كاملة ، أى منذ كبر الأبناء وضاق بهم المسكن ولم يعد يلبي احتياجاتهم وتطلعاتهم المشروعة ، لكنى فى كل مرة أقدمتُ فيها على محاولة تغيير المسكن باءت محاولتى بالفشل لأسباب «عملية» أو «نفسية» ، فأما الأسباب العملية فهى أن أكتشف مثلاً أن المسكن الجديد الذى أوشكتُ على الارتباط بشأنه ليس أفضل كثيراً من مسكنى القديم ، أو أن أكتشف فيه عيوباً تقنعنى بالانصراف عنه ترقباً لفرصة أفضل ، أو أن أضيق بشروط مالكه وأرى فيها تعنتاً لا مبرر له ، إلى آخر هذه الأسباب العملية المقبولة .

أما الأسباب النفسية ، وهى التى تكمن غالباً وراء تضخيمى للمبررات العملية لرفض المسكن الجديد ، فهى أنى قد ارتبطتُ بمسكنى القديم هذا نفسياً ومعنوياً منذ سنوات طويلة ، ووثقت الأيام والأعوام روابطى به وبالجوار كله ، حتى لم أعد أتخيل لنفسى حياة أخرى بعيدة عنه ، فعرفتُ فيه « البشر » من جيرانى وأصحاب المحال التجارية التى تقع أسفله وإلى جواره وعرفونى ، وتوثقت الروابط بيننا حتى لم أعد

في سنواتي الأخيرة بهذا المسكن أحتاج لتقديم نفسي إلى أحد عند الاحتياج إلى أية خدمة من الخدمات المعيشية المألوفة ، وإنما يكفي لكى أحصل عليها أن أتصل تليفونيًا بمن يستطيع أداءها لى من أصحاب المحال المجاورة لتتم على الفور ، وليس بين الخَيرين بعد ذلك حساب ، بل لعلى أجادل من أدى لى هذه الخدمة طويلاً لكى يريحنى ويحدد أتعابه ، فيرفض غالبًا ويتركنى حائرًا فى تقديرها ، فإذا استجاب للإلحاح وحدد مبلغًا معينًا لهذه الأتعاب ، وجدتنى أقدم له أكثر مما طلب لثقتى فى أنه قد جاملنى بتخفيض الأجر بعض الشيء . أما سكان العمارة التى أقمتُ فيها ٢٩ عامًا كاملة فقد عرفتُ معظمهم وشاركتهم مناسباتهم الحزينة والسعيدة على السواء ، وألفتُ أصواتهم التى تتسلل إلىَّ عبر نوافذ شقتى وخبرتُ منها بعض أحوالهم ، كما خبروا هم كذلك بعض أحوالى ، وحين أقمتُ وحيدًا فى مسكنى بهذه العمارة قبل الزواج وحتى بعد أن تزوجت فيه وأنجبتُ الأبناء ، فلقد صحت أكثر من مرة على رنين جرس الشقة فى الساعة صباحًا وفتحتُ الباب مستطلعًا ، فإذا بأحد جيرانى الساعين إلى عملهم فى هذا الوقت المبكر من الصباح قد لاحظ أثناء هبوطه درَج السلم أننى قد نسيت مفتاح الشقة فى الباب من الخارج حين رجعتُ مجهدًا قرب الفجر ، فيحينى الجار الطيب تحية الصباح مبتسمًا وهو يشير إلى المفتاح فى قفل الباب ، وأشكره بحرارة وأسحب المفتاح وأرجع إلى نومى .

فأما جارنى الأقرب إلى مسكنى فقد تحولت علاقة الجوار معها إلى

صداقة عائلية حميمة منذ سنوات طويلة ، وما من مرة اشترت لنفسها شيئاً رأتُهُ جميلاً في الأسواق وهى في طريق عودتها من مدرستها التى تعمل مديرة لها إلا واشترت لنا مثله بغير طلب منا ، لثقتها فى أننا سنستهج لذلك ، وسوف نسعد بالاستفادة من خبرتها الثمينة بالأسواق والاحتياجات المنزلية ، وقد أنقذتنى هذه الصداقة العائلية ذات يوم من مأزق كاد يفسد على إحدى إجازاتنا العائلية القليلة ، فلقد اصطحبتُ أسرتى ذات مرة إلى قرية سياحية بالإسماعيلية لقضاء إجازة العيد ، وخططتُ أن يرجع إلى السائق فى هذه القرية بعد يومين ليتسلم منى باب بريد الجمعة بعد أن أكتبه للأهرام ويتوجه به إلى المطبعة ، واستقررنا فى الشاليه الصغير الذى نزلنا به ، وبدأنا فتح الحقائق ، فإذا بى أكتشف أنني قد نسيْتُ ملف بريد الجمعة الذى سأكتب الباب منه على مكتبى بالشقة ، وأصبح الحل الوحيد لهذا المأزق هو العودة للقاهرة لكتابة الباب الأسبوعى وضياح يومين من إجازتى على الأقل ، فاكثأبتُ لذلك كثيراً وبدأتُ أفكر فى العودة للقاهرة بنفس السيارة التى حملتنا إلى هذا المكان ، فإذا بهذه الصداقة العائلية الحميمة تتدخل فجأة لكيلا تحرمنى من الإجازة العائلية ، وإذا بى أكتشف فى هذه اللحظة فقط أن زوجتى تترك منذ سنوات طويلة نسخة من مفتاح شقتنا لدى هذه الجارة الفاضلة تحسباً للمواقف الطارئة ، كما أن هذه الجارة تترك أيضاً نسخة من مفتاح شقتها لدينا لمواجهة هذه المواقف ، فاتصلتُ زوجتى بصديقتها وطلبتُ منها دخول الشقة ، والبحث عن الملف المطلوب إلى أن يأتى إليها

السائق ، وقبل غروب الشمس كان قد رجع إلينا حاملاً الملف المفقود ،
ونعمتُ بإجازتي كما خططتُ لها من قبل ، وفهمتُ في ذلك اليوم فقط
سر هذا المفتاح الغريب الذى كنتُ أراه متدلياً من مكان تعليق المفاتيح
بجوار الباب منذ سنوات ولا أجد له تفسيراً ! وعرفتُ أنه مفتاح شقة
جارتنا هذه ، وأتينا نقوم عنها خلال غيابها فى عملها - بعد أن خلا عليها
المسكن بزواج بناتها - بفتح الشقة فى غيابها لقارىء عدّاد الكهرباء وعداد
الغاز .

وبدرجة أقل تفاوتاً وثقتُ العشرة وطول الجوار بينى وبين كثيرين من
سكان العمارة ، فعرفتُ منهم الطيبة الشابة ، والأم الرؤوم لطفلين
صغيرين كانا أول من عرف ابنى من أصدقاء الطفولة ، ولمستُ حنانها
الزائد بهما ونفورها الشديد من استخدام الشدة معها فى أى شىء ولو من
باب التأديب المشروع ، حتى تساءل البعض عن « حكمة » هذا
التساهل والحنان الزائد بهما ، إلى أن فوجئ الجميع بعد بضعة أعوام
برحيلها عن الحياة بالمرض العضال وهى فى عنفوان شبابها ، و « فهموا »
لماذا آثرتُ ألا تأخذ طفلها بالشدة وهى التى كانت تحس إحساساً باطنياً
عميقاً بأنها سوف تفارقهما فى القريب العاجل . . . رحمها الله وأحسن
مثوبتها .

وعرفتُ كذلك هذه الفتاة الأجنبية التى كنتُ أراها تهبط الدرج من
الدور السابع بنشاط غريب وهى ترتدى فستاناً محتشماً وتبادر من تلقاه
فى الطريق بتحيته بعربية مكسرة قائلة : السلام « أليكم » ، واكتشفتُ

زوجة ألمانية لشاب من الجيران تزوجها في ألمانيا حين هاجر إليها في السبعينات ورجع بها قبل سنوات ، فأخلت له والدته مسكنها بالعمارة ، وانتقلت هي للإقامة مع ابنتها المتزوجة ، واعتدتُ كلما رأيتهَا أن أحییها بود وترحيب ، ثم لم يمضِ وقتٌ طويل حتى رأيتهَا ترتدى الطرحة البيضاء حول شعرها ووجهها فتبدو في صورة ملائكية جميلة ، وتناقل السكان خبر اعتناقها الإسلام وانتظامها الشديد في الصلاة والصيام ، ومجاهدتها الدائبة مع اللغة العربية لكي تقرأ القرآن الكريم بلغته العربية وتفهمه .

ثم لم تمضِ سنوات أخرى حتى رحل زوجها عن الحياة وهو في عنفوان صحته ، فنهضتُ لتحمل مسئوليتها عن ابنها بشجاعة ، وعملتُ بمساعدة السفارة الألمانية في عمل ملائم ، وأشاد الجيران بالتزامها الديني والأخلاقي وحسن تربيتها لابنها ، ووفائها لذكرى زوجها ولأسرته .

كما عرفتُ أيضًا ضابط الجيش الكبير الذي يقيم بإحدى شقق العمارة ، ويسعد بزوجته الفاضلة وأبنائه الثلاثة المهذبين ، وكنتُ أراه خارجًا مع أسرته في الإجازات أو عائداً معها من إحدى الزيارات العائلية سعيدًا مبتهجًا راضيًا عن نفسه وأسرته وحياته ، فإذا بالأقدار تتجهم له فجأة وينكسر قلبه بمصرع أحد ابنه على طريق القاهرة - بورسعيد في حادث سيارة ركبها مع بعض أصدقائه لشراء بعض الملابس المستوردة من السوق الحرة ، وكان مقرراً أن يصطحب معه شقيقه الأصغر إلى نفس

هذه الرحلة المشثومة ، لكنه تراجع عن السفر معه فى اللحظة الأخيرة فكُتِبَتْ له النجاة ، وحين دخلتُ مسكنه لأول مرة معزياً ومواسياً رأيتُه حطاماً يحاول التماسك والتصبر بجهد جهيد .

ثم دارت الأيام دورتها وكبر الابن الأصغر وأصبح ضابط شرطة ، وكبرت الابنة الأخرى وتزوجت ، وكنت فى مسكنى وحيداً صباح أحد أيام الجمعة وأسرتى فى بيت الأهل ، فإذا بجرس الباب ىرن ، وأجد أمامى هذا الابن الشاب نفسه داعم العين يرجونى فى خجل مساعدته فى نشر نعى والده الذى لاقى وجه ربه قبل ساعات بالأهرام ، فدعوته للدخول ، واتصلتُ بالأهرام وأملتُ نعى الوالد الراحل ، وقدمتُ للابن الحزين تعزيتى وزرتُ مسكنه موسياً ومعزياً :

وشهدتُ أيضاً فى هذه العمارة دورة الزمن بمن فيها ، فرأيتُ الطفلة التى كنتُ أداعبها على درج السلم كلما التقيتُ بها تتحول مع الأيام إلى فتاة باهرة الجمال يتنافس الشباب على جذب اهتمامها ، ثم لم ألبث أن سمعتُ ذات يوم ضجيج الفرع وأصوات الغناء والموسيقى تتعالى من شقتها ، وأدركتُ أن سهام الحب قد حسمت المنافسة حولها لصالح شاب كثيراً ما رأيتُه يتسلل فى المساء إلى الدور الذى تقيم فيه ويدق باب شقة هذه الفتاة برفق ، فتفتح هى له « شراعة » الباب القديم فى حذر وتتبادل معه الهمس والكلام خلصة من أبويها ، فإذا استشعرا شيئاً مريباً سارعتُ بغلق الشراعة ، وهروا الشاب مبتعداً . وفى إحدى هرولاته هذه اصطدم بى ثم سارع بالفرار معتذراً !!

كما شهدتُ كذلك الفتاة الأخرى الجميلة التي كانت تشكو من قسوة أبيها في معاملتها ، ورثيتُ لحالها طويلاً وتعاطفتُ معها تعاطفاً صامتاً ، إلى أن كنتُ في مسكني ذات صباح ، فإذا بالباب يدق بشدة ، وإذا بشقيقها الأصغر يهتف بي مفزوعاً : الحق فلانة يا أنكل انتحرت ! فأهرول معه بملابس البيت منزعجاً إلى مسكنها وأجدهما وحيدين في غياب أبويهما ، وقد ابتلعت الفتاة الجميلة بضعة أقراص من الإسبرين ، فلم أفكر في الاتصال بالإسعاف أو طلب الطبيب تجنباً للفضيحة العائلية ، وإدراكاً مني لعدم جدية محاولة الانتحار ، وإنما اتجهتُ إلى المطبخ وأذبتُ كمية كبيرة من ملح الطعام في كوب كبير وأعطيته للفتاة لتشربه على جرعات وتبدأ في إفراغ معدتها ، وأوصيت أختها بأن تصنع لها شراباً ساخناً ورجعت إلى مسكني مطمئناً لانتهاء الأزمة . والتقيت بالأم بعد ذلك بالصدفة على درج السلم فلمحت العرفان الصامت في نظرة عينيها ، وسمعت كلمة شكر خافتة منها . . أما أبوها ، فالتقى به فلا ألمس منه شكراً ولا عرفاناً ، وأفهم من ذلك أن الأم والابنتين قد أخفين عنه القصة كلها تجنباً لمضاعفة المشكلات مع أب مزعج مثله !

كما شهدتُ أيضاً الغادة الهيفاء التي كانت تنزل من سيارة يقودها شاب أمام باب العمارة لترجع إلى مسكنها ، فيرقبها بواب العمارة في ارتياب وشك ويتجههم في وجهها ويعاملها بشيء من الازدراء إعلاناً لرفضه هذا السلوك ، وتتحمل هي نظراته القاسية لفترة من الزمن إلى أن يجيء يوم ويدخل معها هذا الشاب نفسه باب العمارة لطلب يدها من

أبيها ، فيراجع البواب نفسه في طريقة معاملته لها ، ويرحب بالشباب بحرارة ويصطحبه في المصعد إلى شقة الأسرة مبتهجًا ، ثم رأيتُ هذه الغادة الهيفاء نفسها وقد استقرت مع زوجها في مسكن أمها تظهر عليها علامات الزمن تدريجيًا ، فينتفخ بطنها مرتين أو ثلاثًا ، ويختفى القوام الرشيق ويحل محله قوام برميلي يعلن تغير الأحوال وانتهاء مرحلة الرشاقة والريجيم للأبد .

أما أصحاب المحال التجارية التي تقع تحت نفس العمارة فلقد تشابكت روابطهم بهم ، وعمقت الأيام من صداقتي لهم وكثرت مجاملاتهم لي ، وألفتُ أن أحبيهم ويحيونى في الخروج والدخول ، وأنستُ بصحبتهم وودهم الصادق ، حتى لقد وجدتُني أشعرُ شعورًا غامضًا بالذنب تجاههم وأنا أمضى في مشروع إعداد الشقة الجديدة للسكن ، كأنما أرتكب بذلك « خيانة » غير مفهومة لصداقتهم !

وبسبب هذا الشعور الغامض نفسه فشلتُ إحدى محاولاتي السابقة للانتقال إلى سكن آخر منذ بضع سنوات ، وبعد أن عاينتُ المسكن الجديد وأعجبتُ به واتفقتُ مع صاحبه على توقيع العقد معها خلال يومين ، شاكراً للأديبه الفاضلة التي دلتني عليه جهدها المخلص ، رجعتُ إلى مسكني مبتهجًا بتوفيقى في العثور على السكن المطلوب ، فما أن نزلتُ من السيارة وحيثُ بواب العمارة وبعض أصحاب المحال التجارية الواقفين على الطوار يحيونى ، وتبادلنا بعض الكلمات العابرة ، حتى وجدتُ ابتهاجى السابق يتبدد ويحل محله إحساس آخر بالشجن

والاكتئاب ، وليومين كاملين صاحبنى هذا الإحساس الغامض فى الرواح
والمجىء ولم يهنا لى نوم ولا صحو ، وفى اليوم الثالث وجدتنى أتصل
بالأديبة الفاضلة واسطة الخير فى الارتباط بالسكن الجديد ، وأعتذر لها
عن عدم قدرتى على مغادرة هذا الجوار ، وأنهى إليها تفصلى لأن أظل
متعلقًا بالأمل المستحيل فى أن أجد بغيتى فى المسكن الأوسع على بعد
أمتار قليلة من مسكنى القديم ، وحبذا لو كان فى نفس العمارة التى أقيم
بها ! . . . وفشل هذا المشروع كما فشلت مشروعات أخرى مشابهة ، إلى
أن أذن الله لى أخيرًا باستجماع شجاعتى النفسية والإقدام على إعداد
مسكن جديد لا يبعد كثيرًا عن المسكن السابق والانتقال إليه ، فإن قلتُ
لك إننى أمضيتُ الأيام الأولى فيه وأنا لا أشعر بأننى مقيم فى بيتى
ومستقرى الآمن كما يشعر كل إنسان ، وإنما فى « فندق » صغير انتقلتُ
إليه مع أسرتى لأسباب قهرية ولن تطول إقامتنا به ، ثم نرجع متلهفين
إلى مسكننا القديم وجيراننا الأحباء وحياتنا الأصلية ، فلستُ أبالغ فى
ذلك .

ولا عجب فيما أقول لك ولا غرابة ، فإنما يسعد الإنسان بالإنسان
وليس بالمكان ، فادع لى الله ألا تطول « غربتى » فى هذا المسكن الجديد
البارد ، حيث لا أعرف أحدًا ولا يعرفنى أحد ، ولا تربطنى بأحد أية
روابط إنسانية حتى الآن . . . وادع لى الله أيضًا ألا تطول حالة انعدام
الوزن التى أعانى منها الآن كثيرًا ، ولك منى محبتى وعرفانى وشكرى
جزاءً وفاقًا لذلك .

القرارات الأخيرة

قرأتُ عن مرضه وقرب سفره للعلاج في
فرنسا وأنا ببباريس ، فاعتزمتُ زيارته في
المستشفى حين يجيء .

ترقبْتُ وصوله ، ثم توجهتُ إليه برفقة أحد زملائي بمكتب الأهرام
بباريس والقنصل المصرى العام بالعاصمة الفرنسية . توقفتُ خلال
الطريق أمام محل للزهور ، وطلبتُ من البائعة باقة ملائمة لزيارة مريض
بالمستشفى ، فراحت تجمع بعض نباتات الزينة وتنسقها فى باقة لصغيرة .
طلبتُ منها أن تضيف إليها بعض الورود الفوّاحة ، فقالت لى إنهم فى
المستشفيات لا يفضلون الزهور ذات الرائحة ، وإنما الزهور ذات الألوان
المبهجة فقط ، فاحترمتُ « الخبرة » الفرنسية فى هذا الشأن وسلمتُ لها
باختيارها .

توقفت السيارة أمام مستشفى « أوتيل ديوى » ، فتجدد عجبى لاسم
هذا المستشفى العريق الذى زُرْتُه من قبل أكثر من مرة ، إذ لا معنى
لكلمة « أوتيل » سوى الفندق أو المقر . . ولا معنى لكلمة « ديوى » فى
الفرنسية سوى الله ! . . فهل تكون الترجمة الحرفية لاسم هذا الفندق
هى « فندق الله » كما نقول نحن عن المسجد إنه بيت الله . . وليس لله
- عز وجل - بيت ولا فندق لأن الكون كله بيته وفندقه ؟

تلفتُ حولى قبل أن أدخل المستشفى ، فشاهدتُ كنيسة نوتردام
الشهيرة التى تُجرى أعمال تجديدها ببطء شديد وعناية كبيرة منذ حوالى
عامين ، وراقبتُ التجمع الدائم للسياح فى الساحة التى تطل عليها
الكنيسة ، وتذكرتُ أننى كثيراً ما شاركتهم زيارة هذه الكنيسة الأثرية
والتسكع أمامها .

ترتبط الأماكن عندى فى كثير من الأحيان بالأعمال الأدبية الشهيرة التى قرأتها عنها قبل أن أراها ، وبالأدباء الذين كتبوها . . ولهذا فلم يحدث ذات مرة أن جئتُ إلى سدا المكان بغير أن أتذكر اسم الروائى الفرنسى الكبير « فيكتور هوجو » وروايته الشهيرة « أهدب نوتردام » ، كما لم آت يوماً إليها إلا ورفعتُ بصرى إلى برج الكنيسة شاهق الارتفاع . . فيخيل إلى أننى أرى « كازيمودو » الأهدب المشوه الأصم قارع أجراس هذه الكنيسة يدق أجراسها ، أو يقاتل بضراوة فوق أسوارها مَنْ يحاولون اقتحام الكنيسة لإخراج العجربة الجميلة « أزميرالدا » منها ، وتنفيذ حكم الإعدام شنقاً فيها ، حتى إذا نجح « كازيمودو » فى قتل عدد كبير منهم وإبعادهم عن أسوار الكنيسة ، رجع إلى الغرفة التى أخفاها فيها فلم يجدها ، لأن الأسقف العاشق « كلود فروللو » الذى رفضته أزميرالدا قد تحايل لإخراجها من الكنيسة وتسليمها لمن نفذوا فيها حكم الإعدام ، فلا يتمالك كازيمودو نفسه ولا يتردد - حين أدرك الدور الذى قام به سيده الأسقف - فى أن يطوح به من فوق أسوار الكنيسة إلى هذه الساحة التى نقف أمامها الآن ، ثم يختفى الأهدب المشوه الذى حمل أعظم الحب لهذه الفتاة العجربة منذ عطف عليه وهو معلق فى آلة التعذيب بأحد الميادين ، وقدمت له جرعة الماء مع أنه كان يُعاقبُ بتهمة محاولة اختطافها ، تنفيذاً لأمر سيده الأسقف .

وبعد سنوات طويلة عشروا على جثمانه فى قبر أزميرالدا الجميلة . . ووجدوا عظمة عنقه سليمة ، مما يقطع بأنه لم يُشنق بأمر السلطات ،

وإنما سعى بقدميه إلى قبر محبوبته ، ورقد إلى جوارها باختياره ، حتى مات إلى جوار من يحب !

انتزعتُ نفسي من تأملاتي واتجهنا إلى باب المستشفى ، فتذكرتُ أن آخر زيارة لي لهذا المستشفى كانت لزيارة الكاتب الصحفي الأستاذ «مفيد فوزي» حين أَلَمْتُ به وعكة صحية شديدة منذ سنوات . .

يا إلهي . . ما أكثر المرضى من الكُتَّاب والأصدقاء الذين أزورهم بمستشفيات باريس كلما جئت إليها في زيارة . . فما من مرة جئتُ فيها إلى باريس إلا وعلمتُ بوجود زميل أو صديق في رحلة علاج ، فأسعى إليه حيث يكون وأقضى معه بعض الوقت !

يزداد عجبى وإعجابى كلما استرجعتُ في مخيلتى هذا الحديث القدسى الفريد الذى رواه أبو هريرة فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا بن آدم ، مرضتُ فلم تُعْذِنى ! قال : يا رب ، كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمتَ أن عبدى فلاناً مرض فلم تُعْذِهْ ؟ أما علمتَ أنك لو عُذَّتْهُ لوجدتُنِي عنده !

فأى معنى فريد فى هذه الكلمات الطاهرة « مرضتُ فلم تُعْذِنى » ! . . وأى قيم أخلاقية سامية ! لقد قال العلماء فى تفسير هذا الحديث القدسى : إن الله سبحانه وتعالى قد نسب المرض إلى ذاته العلية ، لكن المراد به هو العبد . . تشریفاً للعبد المريض وتقريباً له ،

وإن معنى « وجدتنى عنده » هو : وجدت ثوابى وكرامتى فى حضرة هذا المريض !

صعدنا السلم إلى الدور الأول ، ولاحظتُ - كالعادة - نظافة ردهات المستشفى وهدوئه ، و « اللوحة » الجميلة من الزهور الملونة التى تتوسط فناءه الداخلى . طرقنا باب الغرفة ، فجاءنا صوته يدعونا للدخول . دخلنا إليه فوجدناه وحيداً فى فراشه يتطلع إلينا مبتسماً ومرحّباً بنفس ملامح الوجه الرومانى المميز . . ونفس النظرة الذكية اللامعة فى عينيه ! فمتى بدأت علاقتى بهذا الرجل الذى أزوره الآن فى مستشفى أوتيل ديوى ؟

أذكر أننى كنتُ تلميذاً بالسنة الأولى الثانوية ، حين خطر لأحد تلاميذ المدرسة أن يبدأ مشروعاً تجاريّاً « جريئاً » فى وقته ، هو بيع الصحف والمجلات داخل فناء المدرسة قبل الدراسة وفى وقت الفسحة ، وسمح له ناظر المدرسة بذلك تقديرًا لظروفه ، فكنتُ أشتري منه « الأهرام » لأقرأه بين الحصص ، مع أن أبى يشتريه كل يوم ، وواظبتُ على هذه العادة كل أيام الأسبوع ، ماعدا يومًا واحدًا كل أسبوع هو يوم الثلاثاء ، فكنتُ أشتري « الأخبار » بدلًا من « الأهرام » . ولاحظ ذلك بائع الصحف التلميذ وسألنى عن السبب ، فأجبته : لأن « أنيس منصور » يكتب فى هذا اليوم يوميات الأخبار فى صفحتها الأخيرة !

وهكذا ارتبط عندي يوم الثلاثاء - ولسنوات طويلة - بمقال أنيس منصور
ولذعاته الأدبية . . وسياحاته الفكرية . . وأسلوبه الرشيق الجميل ، كما
ارتبط من قبل يوم الثلاثاء عند عدد كبير من أدباء الجيل الماضي بموعد
صالون الأدبية اللبنانية « متى زيادة » ، وقد كانوا يتطلعون إليه وينتظرونه
بشوق ولهفة حتى قال الشاعر اللغوي الأديب « حفنى ناصف » :

إن لم أمتّع بميّ ناظرٍ غداً

لا كان صُبْحُكَ يا يومَ الثلاثاءِ

أما كتبه . . ومقالاته الأدبية الأخرى ، فلقد قرأتُ منها الكثير،
و«عرفتُ» منها أيضاً الكثير ، ومن أحبها إلى قلبي « كانت لنا أيام في
صالون العقاد » و « الخالدون مائة » أعظمهم محمد صلى الله عليه وسلم
« ، وكتاب صغير قديم يعبر فيه عن حيرته الأبدية وغربته النفسية
كأديب ، فسماه « نحن أولاد الغجر » .

وبفضل كتابه القيم عن العقاد ازددتُ حباً للعقاد وفهماً لشخصيته
وأدبه ، ومن هذا الكتاب بالذات فهمتُ معنى رمز مدينة روما وهو
« ذئبة ترضع أخوين » ، ووجدتني حين زرتُ العاصمة الإيطالية لأول
مرة أشرحه لمن معي نقلاً عن كتاب أنيس منصور . . وكيف أنه إشارة
لقصة أو أسطورة الأخوين « رومولوس » و « ريموس » اللذين طردهما
عمهما من البيت في القرن الثامن قبل الميلاد ، فذهبا إلى الغابة
واحتضنتهما ذئبة وأرضعتهما ، وعندما اهتدى إليهما الناس أعادوهما إلى
الحياة العادية فأقاما مدينة روما !

وعن ترجمته الأدبية الجميلة قرأتُ لأول مرة أعمال الكاتب المسرحي السويسري « ديرنات » ، وقرأت عن « ألبرتو مورافيا » أديب إيطاليا العظيم ، وغيرهما كثيرين وكثيرين ، وتعاملتُ معه طوال ما يقرب من أربعين عامًا كأديب ومفكر فقط ، ورفضتُ عامدًا أن أتعامل معه ككاتب سياسى ، لكيلا يُفسد على اختلاف الآراء حول المواقف والاتجاهات السياسية صِلتى الفكرية به ، بل وتمنيتُ لو لم يكن قد اقترب أصلاً من بحر السياسة المضطرب دائماً بالعواصف والأنواء واختلاف الآراء وتعارضها ، لأن الأديب فوق الخلاف ، أما الكاتب السياسى فهو فى بؤرة الخلاف والاتفاق وصراع الآراء ، وقد تتفق مع آرائه اليوم وتختلف غداً ، وهكذا .

سألتُ الأستاذ أنيس منصور كيف أصيب بالجلطة فى قدمه وهو الذى يتبع فى حياته نظاماً صحياً دقيقاً ، ويحرص على المشى لمسافات طويلة ، وكان يصاحب الرئيس « السادات » فى ممارسته لرياضة المشى كل يوم لمدة ساعتين ؟ فأجابنى بأنه قد توقف للأسف عن ممارسة المشى منذ فترة غير قصيرة ، وأنه قد أصيب بالجلطة لأنه انشغل بكتابة كتاب ضخيم يروى فيه سيرته الذاتية ، فراح يجلس إلى مكتبه بلا حراك لأكثر من ١٢ ساعة كل يوم ، حتى فوجئ ذات يوم بتورم قدمه ، وبدأ العلاج . . فتبين أنه قد أصيب بجلطة فيها ، وأن هذه الجلطة قد تحركت داخل أوردة الجسم حتى بلغت الرئة . وخضع للعلاج المكثف فى مصر ، وتم تفتيت الجلطة بالفعل ، لكن الأطباء نصحوه بعد مرحلة

معينة من العلاج بالسفر إلى باريس ليعالج تحت إشراف البروفيسور «روشفور» أكبر أطباء الصدر في فرنسا ، وطمأنه الطبيب الفرنسي الكبير إلى إمكانية محاصرة « شظايا » هذه الجلطة داخل الجسم ومنعها من الانتقال إلى أماكن أخرى أكثر حساسية ، لكن الأمر يتطلب منه الراحة التامة وعدم الحركة لفترة محددة ، وهو - كما يقول عن نفسه - مريض مثالي فيما يتعلق بتناول الأدوية ومواعيدها ونظام الغذاء ، أما فيما يتعلق بعدم الحركة فهو مريض مشاكس ، لكنه يحاول قدر جهده الالتزام بتعليمات الطبيب بهذا الشأن . وألحنا عليه بضرورة الانصياع التام لتعليمات الأطباء لكي يكتب له الله الشفاء ويرجع إلى بلده وأهله وقرائه . . . وقلت له إن التمرد الفكرى يمكن أن يكون أمراً مفهوماً من أديب مثله ، لكن التمرد على تعليمات الأطباء أمر لا يمكن قبوله من مفكر يعنى جيداً ماذا يعنى ذلك من خطر عليه ، ووعدنا بالالتزام ، وأرجو أن يفي بوعدده .

فهل اختلفت شخصية « المريض » أنيس منصور عن شخصية «الأديب والمفكر والساخر اللاذع» أنيس منصور؟

لم أشعر بذلك لحظة واحدة خلال زيارتى له ، فلقد انطلق «المحدث البارع» المعهود يتحدث ويعلق . . . وينتقد ويلذع بطرف لسانه كما يلذع بطرف قلمه حين يريد ، وروى لنا ذكريات سياسية وأدبية ضاحكة كثيرة . . . وأضحكنا كثيراً وإن لم يضحك هو إلا قليلاً . . . وكانت « قمة » حكاياته السياسية اللاذعة ما رواه لنا بمناسبة زيارة دبلوماسى مصرى

كبير له بالمستشفى قبل مجيئنا بساعات ، فروى لنا أنه صاحبه منذ
عشرين سنة إلى زيارة دولة إفريقية يحكمها جنرال من جنرالات
الانقلابات العسكرية في إفريقيا ، وكانت هناك جفوة مؤقتة بين البلدين
بسبب مشكلة بروتوكول صغيرة ، فقرر المسئول الدبلوماسى المصرى أن
يقوم بزيارة ترضية لهذا البلد الإفريقى واصطحب معه خلال الزيارة
صديقه الأديب أنيس منصور ، وتوجها معًا لمقابلة هذا « الزعيم » ،
فكان رجاء الدبلوماسى لصديقه الأديب هو ألا يضحك مما قد يسمعه
خلال اللقاء لكيلا يفسد عليه الغرض من الزيارة ، وهو مجاملة هذا
الجنرال الإفريقى وإزالة الجفوة العابرة بين البلدين ، ودخل الاثنان إلى
الرئيس الإفريقى ، فاستقبلهما بتحفظ مقصود وهو يرتدى زى الماريشالية
ويمسك في يده بصولجان ثقيل من الذهب الخالص ، وبدأ الدبلوماسى
حديث المجاملات العادية ، والرجل مازال على تحفظه ، ثم أراد أن
يذيب جليده فقال له بلهجة خطيرة : جئنا إليك لنلتمس الحكمة لديك
.. ونستشيرك فى الموقف الدولى الراهن ونستعين بخبرتك وحنكتك
السياسية المعروفة فى التعامل معه !

فلاحظ أنيس منصور أن ملامح الرئيس الإفريقى الجامدة قد بدأت
تسترخى رويدًا رويدًا !

وواصل الدبلوماسى حديثه فقال : ولقد تدارسنا قراراتكم الأخيرة
.. وهى قرارات خطيرة تعكس بُعد نظركم وفهمكم العميق لمجريات
الأمر .. ونطلب الحصول على النصوص الكاملة لها للعكوف على

دراستها واستجلاء مراميها العميقة ! . . فإذا بالرجل يسترخى تمامًا في مقعده . . وينقل الصولجان الذهبي من يده اليمنى إلى اليسرى باستمتاع شديد . . وقد زالت كل الحواجز وانفجرت الأسارير وظهرت حفاوة الترحيب ، وأمر الرجل نائبه الذى يحضر المقابلة بدعوة ضيفيه للغداء ، وتسليم الدبلوماسى نصوص قراراته الأخيرة . . وغادر الاثنان مكتبه وسط الحفاوة والإجلال !

وفى الطريق إلى خارج القصر الجمهورى مال أنيس منصور - الذى بذل مجهودًا كبيرًا ليتحكم فى تعبيرات وجهه خلال اللقاء - على أذن صديقه الدبلوماسى وسأله عن هذه القرارات الأخيرة التى تحدث عنها ، وفى أى مجال من المجالات هى ؟

فإذا بالدبلوماسى الكبير يحببهم هامسًا : لا أعرف عنها شيئًا ، ولا أعرف إذا كان قد أصدر مثل هذه القرارات من الأصل أم لا . . لكن لأنه من زعماء العالم الثالث فلا بد أن له قرارات أخيرة ، ولابد أن هذه القرارات خطيرة وجليلة الشأن ، وقد صدرت فى « منعطف تاريخى » تواجهه البلاد ، ويتطلب رؤية شاملة و « مرحلة تاريخية جديدة » من مراحل العمل الوطنى ، لأن « ساعة العمل الثورى » قد دقت ، وأن الأوان لبدء مرحلة « الانطلاق » والخروج من عنق الزجاجة ، إلى آخر هذه الخزعبلات الشائعة فى أدبيات الأنظمة « الثورية » فى العالم الثالث ! ولم يتمالك أنيس منصور نفسه من الضحك عاليًا قبل أن يغادر أسوار

القصر الجمهورى ، ولم نتمالك نحن أنفاسنا من الضحك على هذه النادرة السياسية ، ولا على الطرائف الأدبية والسياسية الأخرى التى رواها لنا طوال زيارتنا له حتى أشفقنا عليه من إجهاد الكلام . ولم يشفق هو على نفسه منه ، ولا من حدة ذكائه ولذعة سخريته اللتين لا يعطيها أنيس منصور إجازة قصيرة حتى وهو فى فراش المرض !

وغادرناه ضاحكين .. بعد أن دخلنا إليه فى البداية مشفقين ومتوجسين ، وعلمتُ بعد عودتى للقاهرة أنه قد غادر المستشفى للإقامة فى فندق قريب ، وأنه سيواصل العلاج الخارجى والتردد على طبيبه لمدة شهرين قبل أن يرجع إلى مصر ، فرجوتُ له اكتمال الشفاء ، وتمنيتُ أن يرجع سالماً إلى مشاغباته الأدبية والسياسية ، ويواصل تقطير زهور الفكر والأدب وتقديمها من خلال مداد قلمه الساحر ، لقرائه .. والمتفقين معه فى رأى والمخالفين على السواء .

كتب المؤلف

١ - أصدقاء على الورق	قصص انسانية	الطبعة الأولى	١٩٨٦ (نقد)
٢ - يوميات طالب بعثه	أدب رحلات	الطبعة الأولى	١٩٨٧ (نقد)
٣ - هتاف المعذنين	قصص انسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٨ (نقد)
٤ - صديقي لا تأكل نفسك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة	١٩٩٦ (نقد)
٥ - نهر الحياة	قصص انسانية	الطبعة الثالثة	١٩٩٦
٦ - العصافير الخرساء	قصص انسانية	الطبعة الثالثة	١٩٩٦
٧ - صديقي ما أعظمك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية	١٩٩٣
٨ - العيون الحمراء	قصص انسانية	الطبعة الخامسة	١٩٩٨
٩ - افتح قلبك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية	١٩٩٦
١٠ - اندهش يا صديقي	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة	١٩٩٧
١١ - أزواج وزوجات	قصص انسانية	الطبعة الثالثة	١٩٩٦
١٢ - أرجوك لا تفهمنى	قصص انسانية	الطبعة الثانية	١٩٩٦
١٣ - رسائل محترقة	قصص انسانية	الطبعة الثانية	١١٩٦
١٤ - وقت للسعادة . . ووقت للبكاء	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثالثة	١٩٩٦
١٥ - شركاء فى الحياة	قصص انسانية	الطبعة الثالثة	١٩٩٦
١٦ - أماكن فى القلب	قصص انسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٤
١٧ - لا تنسى	رومانسية	الطبعة الثانية	١٩٩٦
١٨ - نهر الدموع	قصص رومانسية	الطبعة الثانية	١٩٩٦
١٩ - أقنعة الحب السبعة	قصص انسانية	الطبعة الأولى	١٩٩٦

٢٠ - خاتم في اصبع القلب	صور أدبية	الطبعة الثانية ١٩٩٦
٢١ - وحدي مع الآخرين	مقالات	الطبعة الثالثة ١٩٩٩
٢٢ - سلامتك من الآه	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ١٩٩٨
٢٣ - هو وهمي والآخرين	قصص انسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٧
٢٤ - مكتوب على الجبين	قصص انسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٧
٢٥ - اوراق الليل	قصص انسانية	الطبعة الأولى ١٩٧٧
٢٦ - طائر الأحزان	قصص انسانية	الطبعة الثانية ١٩٩٧
٢٧ - اعط الصباح فرصه	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ١٩٩٦
٢٨ - الحب فوق البلاط	قصص قصيرة	الطبعة الأولى ١٩٩٧
٢٩ - سائح في دنيا الله	أدب رحلات	الطبعة الثانية ١٩٩٨
٣٠ - قالت الأيام	قصص انسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٧
٣١ - صور من حياتهم	قصص قصيرة	الطبعة الأولى ١٩٩٨
٣٢ - ساعات من العمر	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ١٩٩٨
٣٣ - ساعات من العمر	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ١٩٩٨
٣٤ - عاشوا في خيالي	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ١٩٩٩
٣٥ - قدمت اعذارى	خواطر وتأملات	الطبعة الأولى ١٩٩٩
٣٦ - ترانين الحب والعذاب	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ١٩٩٩
٣٧ - الثمرة المره	قصص انسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٩
٣٨ - دموع القلب	قصص انسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٩
٣٩ - أيام السعادة والشقاء	قصص انسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٩
٤٠ - أرجوك أعطني عمرك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الأولى ٢٠٠٠
٤١ - من المفكرة الزرقاء	صور ومقالات أدبيه	الطبعة الأولى ٢٠٠٠

أرجوك .. أعطني عمرك

هل يستطيع الإنسان أن يعيش حياته مرتين أو أكثر لكي يتعلم ويحيد فن الحياة ،
ويحسن التعامل مع ما يواجهه في حياته من
اختبارات عسيرة وتناقضات كثيرة وألغاز
محيرة .. ؟!

في هذا الكتاب يجيب الاستاذ الكبير
عبد الوهاب مطاوع على هذا التساؤل
بأسلوبه الإنساني المتميز ، فيقول إن
الإنسان - لكي يحقق هذه الأمنية الصعبة ،
فإنه يحاول أن «بطل» عمره المحدود بإضافة
أعمار الآخرين إليه .. بمعنى إضافة ما
تعلمه الآخرون من دروس حياتهم وتجاربهم
إلى ما تعلمه هو من أخطاء وعثرات .. فهو
بذلك يضيف عصارة أعمار هؤلاء الآخرين
إلى عمره !



● مدير تحرير الأهرام ورئيس تحرير
مجلة الشباب .

● حصل على جائزة مؤسسة على
أمين ومصطفى أمين الصحفية
عام ١٩٩٢ كأحسن كاتب
صحفي يكتب في المسائل
الإنسانية .

● يكتب باب بريد الجمعة
الإنساني في الأهرام كل أسبوع
بانتظام منذ عام ١٩٨٢ ،
ويشرف على باب بريد الأهرام
اليومي بصحيفة الأهرام .

● صدر له أكثر من ٣٧ كتاباً ،
يتضمن بعضها نماذج مختارة من
قصص بريد الجمعة الإنسانية
وردوده عليها ، ويتضمن
البعض الآخر قصصاً قصيرة
وصوراً أدبية ومقالات في أدب
الرحلات .

● له ثلاث مجموعات قصصية
هي : « أماكن في القلب »
و « لا تنسني » ، و « الحب فوق
البلاط » .

